

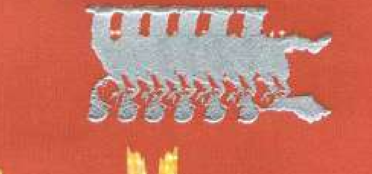
المشي بالمقلوب



ترجمة وتقديم : فاطمة ناعوت



إصدارات وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء



المشي بالمقلوب



ترجمة وتقديم : فاطمة ناعوت

إصدارات وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء



صنعاء عاصمة للثقافة العربية 2004

Sanaa 2004 the arab cultural capital

المشي بالمقلوب

قصص

ترجمة عن الإنجليزية

فاطمة ناعوت

وزارة الثقافة اليمنية

2004



إلى صنعاء

حيث جمال المكان وجمال البشر.

فاطمة ناعوت

تصدير المُترجِمة

يلتقي القارئُ في هذه المجموعة بإحدى عشر قصة. تسعٌ منها للقاص الإنجليزي المعاصر "جون ريفنسكروفت"، John Ravenscroft ، واثنتان طويلتان؛ واحدة للقاص والروائيّ الأمريكي "شيروود أندرسون" Sherwood Anderson، والأخرى للروائيّ والقاص والشاعر الأمريكي أيضًا "جيسي ستيوارت Jesse Stuart" .

خلال مجموعة القصص الأولى لريفنسكروفت، وهو قاص إنجليزيّ معاصر يعمل ضمن أسرة تحرير مجلة "كادينزا" وحصد مجموعةً لا بأس بها من الجوائز بينها جائزة الكومنولث، تتجلى ملامح منهجه السرديّ الذي يمتاز بالتقاطه دقائق الحياة غير المُلفتة واقتناص الشعرية منها عبر الموقف الدراميّ والصورة التشكيلية والنقلات المباغتة والمفارقة.

يستلهم مفردات تأملّه من (الشيء) ومدى تأثّره بـ/ وتأثيره على (الإنسان)، بوصف المرء والموجودات في حالٍ دائم من الجدل. يناقش أزمة الإنسان عبر مواقف حياتية تبدو بسيطةً وبديهية، بل تكاد تكون يومية غير مُلفتةً، لكنه ينجح في اقتناص العمقِ الوجوديّ منها والمحنة التي تعانيها شرائح محددة من البشر؛ قد تنسحب خصائصها على غير الأسوياء أو المنقسمين على ذواتهم من البشر، أو هؤلاء ذوي الحساسية الشفيفة، أو شريحة الفنانين، أو البشر في مراحل حيواتهم الأخيرة حين تنكشف لهم الحياة كاملةً مثل كتابٍ انتهت قراءته للتوّ، هؤلاء المعمّرين في جدلية وَهَنِهم الفيزيقيّ وحدّة بصرهم الرؤيوي. أو نقيض ما سبق تماما، أي الإنسان تقريبا، الإنسان قبل أن يكتمل أي الجنين ورؤاه المستقبلية. وكل تلك الشرائح السابقة – في زعمي – تلتقي كثيرًا وتتقاطع، أو أنها مرايا للنفس البشرية في أصفى حالاتها وأكثرها أثيريةً وبُعدًا عن الأرض. وبديهيّ– والحال هكذا – سوف يشغله كذلك عالم الحيوان بكلّ ما يحملُ من ضعفٍ وقوّة، في آن، وخصائصَ وجوديةٍ جديرة بالتأمّل والإنصات.

يجمع أسلوبه بين اللغة الإنجليزية (البريطانية) الرفيعة وبين التعبيرات الدارجة الحديثة في نقلاتٍ بارعة لا نتوءات حادةً فيها تعرقل استرسال التلقي ولا إثقالَ من أيٍّ منهما على الأخرى. ويجمع كذلك بين الجُملة الطويلة التي تزخر بالجمل الاعتراضية، وبين الجملة القصيرة المباغتة التي تشبه الومضات أو الطلقات التي تحملُ قدرًا من إنارة النص حينًا، وفي حين آخر تحمل شحنةً من الصدمات التي تحوّل وتبدّل من مسار الاتجاه الفكري للقارئ الذي كان ركن إليه قبل لحظة بمعرفة الكاتب.

ومثل كثيرين من كتّاب القصة القصيرة الحديثة، يبدأ ريفنسكروفت نصَّه من منتصف الموضوع، أو ربما من نقطة الذروة، ثم يبدأ في لملمة الزمن من الأمام ومن الخلف حتى تكتمل قصاصات الصورة المشهدية في آخر سطرٍ ربما.

ويقودنا هذا إلى الكلام عن النهايات (وهو مأخذي الوحيد على هذا القاص المميّز)، فهو أحيانا – برأيي الخاص – يُثقل النهاية بإيضاحٍ قد يفسد جمال ورهافة الوقفة المفاجئة التي تدع للقارئ ثغرةً يدخل منها إلى فضاء التأويل ولا تُغلق النص على أحادية التلقي، الأمر الذي يحرم القارئ من متعة الارتطام بالمفارقة وتؤدي إلى استلابه لذة الصدمة.

ولا تخلو قصص ريفنسكروفت من ومضات من الواقعية السحرية واستجلاب الميتافيزيقا أحيانًا (كما نلمس في : داخل رحمٍ مُنتظر - النبتة الصغيرة)، أو الاتكاء على الحُلم بكل ما فيه من فانتازيا (كما في : المشي بالمقلوب)، إلى جوار الواقعيّ والمتعيّن الممسوس بخيطٍ من الرومانسية

أحيانًا (مثلما نجد في :البومة) تلك القصة الحافلة بكثير من الصور الشعرية وكثير من أسباب الشجن الإنسانيّ. كلُّ تلك الخيوط التي ينجح ريفنسكروفت في غزل نسيجه عبرها تجعل من تجربته مشروعًا أدبيًّا متنوعًا وثريًّا.

***

القاص الثاني الذي تناولنا عملا له بالترجمة في هذا الكتاب هو الأمريكي " شيروود أندرسون" (1874-1941). وقد كان في وقته روائيًا ذائع الصيت، بل يعدُّ – حسب النقاد – أستاذًا لرموز بارزة مثل آرنست هيمنجواي ووليم فاكنر، أو لنقل إن الكثيرَ من أعماله الشهيرة كان لها أثرٌ واضح تجلّى في أعمالهما.

ويعدُّ أندرسون أحد رواد المدرسة الواقعية في القصة الأمريكية، التي استلهمت مفردات عوالمها من لغة الحياة اليومية، تلك المدرسة التي كانت سائدة في فترة ما بين الحربيْن العالميتيْن.

جدير بالذكر أن هذا الروائي قد استعاد شهرته (التي خفُتَت بعد رحيله عام 1941)، في السبعينيات من القرن الماضي حين انتبهت مجموعة من النقاد والأكاديميين إلى مشروعه الذي كاد يطمره التاريخ وأعادوا استكشاف مناطق مهمة جديدة في بعض تجاربه مثل : «قصةُ راوي قصةٍ « عام 1924و « طفولةٌ نصفُ غربية « عام 1926 و «ذكرياته» عام1942، و «رسائل» عام 1953 . ومن ثم أُعيد طباعتها تحت عنوان « أعمال شيروود أندرسون الكاملة».

يحفل مشروع أندرسون الأدبي بهموم البسطاء من القرويين وبني الطبقة الفقيرة: أحلامهم البسيطة وإحباطاتهم وكفاحهم المستدير من أجل الحق الأول للحياة. وكذلك جنوحهم أحيانا صوب الجنون من أجل ابتكار وسائل تحقّقٍ وسعادة عوضًا عن الطرائق التي يجنح إليها بنو الطبقات الثرية. تماما كما نرى في قصته الفاتنة «انتصار البيضة» – التي قمنا بترجمتها هنا – وكان كتبها عام 1921، وفيها يصوّر انغماس قرويٍّ بسيط في عالم (الدجاج والبيض)، وبناءه مشروع حياة كامل عبر جدلية الكفاح من أجل أن يجعلَ البيضة تقف على جانبها المدبب، عكس قوانين الفيزيقا وعكس منظومة تشريح البيضة التي معها تستحيل تلك الفرضية. وربما سبب اختيارنا ترجمة تلك القصة هو ما نلمسه – في زعمي الخاص – من إسقاطات اجتماعية وسياسية حول طبيعة حياة هؤلاء البسطاء وهروبهم من واقعهم عبر قرار تغييب (ذاتي) يجنّبهم آلام تأمل الواقع المرير فضلا عن محاولة الشروع في إصلاحه.

***

الكاتب الثالث الذي تعرضنا له في هذه المجموعة هو الأمريكيّ « جيسي ستيوارت» (1906- 1984) ، وهو روائي وشاعر وقاص ذائع الصيت في وقته. وله الكثير من الإصدارات الشعرية والمجموعات القصصية وفاز بالعديد من الجوائز.

ونلمس في قصته الطويلة أو النوفيللا التي قدمناها هنا :» شجرة الكرز المشقوقة» ، حال الصراع الدائم بين الأجيال، والأزمات التي تسببها سطوة الأب البطريركية والتي تتجلى على نحوها الأشد سلبًا بين طبقة الفقراء أو بسيطي العلم. ومن خلال تلك القصة نتعرف على طبيعة الحياة في الجنوب الأمريكي سيما شرائح المزارعين في تلك الحقبة.

النوفيللا، كاملة، مكتوبة باللغة الدارجة الجنوب-أمريكية، بل بلغة السوقة والرعاع خاصة في خطاب الأب تحديدًا (غير إني ترجمتها بالفصحى بطبيعة الحال لتجنّب الوقوع في تباين اللهجات).

القصة على شكل حوار بين الأب وابنه، وبين الأب والبروفيسور الذي يقوم بتعليم ابنه. ونلاحظ النقلات والتباينات النوعية البينّة بين طبيعة خطاب طبقة المزارعين المتمثلة في الأب من

جهة، وبين خطاب الشريحة المثقفة المتمثلة في البروفيسور، وبين خطاب الشريحة (الحائرة): الابن ، تلك الشريحة الواقفة على خط التماس – إن جاز التعبير – بين العلم والجهل، وبين عالمين متناقضيْن سوسيولوجيًّا أحدهما عالٍ (المدرسة) والآخر بسيط (البيت)، ونلمس تلك الصراعات والموازنات التي يجتهد الولد أن يأتيها طوال الوقت من أجل ألا يخسر أيًّا من العالميْن.

***

المبدعون الثلاثة الذين قمتُ بترجمة بعض أعمالهم هنا ينتمون إلى ثلاث حقب زمنية متباينة : أول القرن العشرين ومنتصفه ونهايته. وأرجو أن أكون قد نجحت في إبراز الخيط الرهيف الذي يربط بين الإحدى عشر قصة التي ضمّتها دفتا هذا الكتاب، وهو الخيط الذي ربما حدّد اختياراتي لتلك الأعمال ومن ثم ترجمتي لها.. إنه الإنسان. عبر رحلته الطويلة فوق هذا الكوكب.

لكن أي نوع من الإنسان كان بطل تلك الحكايا ؟ هل هو البطل المنهزم ؟ المنقسم ؟ المنشق على طبقته ؟ غير المتحقق ؟ المعمّر الذي ينتظره الموت ؟ الجنين الذي ينتظره الميلاد ؟ السجين ؟ الهارب إلى الحُلم ؟

أم أن البطل هو عين الفنان الراصدة لذلك الإنسان؟

ربما عبر هذه المجموعة يمكننا أن نقف على إجابةٍ للسؤال التالي :

كيف عبّر قلم المبدع عن محنة الإنسان عبر الزمن؟

هل تغيرت رؤية المبدع للوجود ؟ أم أن الذي تغيّر هو شكل التعبير عن تلك الرؤية ؟

هل تباينتْ أزماتُ الإنسانِ منذ بداية القرن الماضي وحتى نهايته ؟

خلال فترةٍ خاض خلالها حربيْن كونيتيْن، وتغيرت ملامح الخارطة، فترة صنع فيها الإنسان وعاش تحوّلاتٍ سياسيةً واجتماعيةً وتكنولوجيةً وثقافيةً وفكرية، قرنٌ من الزمان نشأت خلاله مدارس فكرية- سياسية –اجتماعية وانهدمت أخرى، كيف تبدّل الإنسان وكيف تبدّلت همومه وأحلامه ؟

والأهم من ذلك كيف تبدّلت العينُ الراصدةُ له : عينُ المبدع ؟

فاطمة ناعوت

القاهرة – يونيو 2004

جون ريفنسكروفت

John Ravenscroft



* قاص وروائي إنجليزي معاصر ولد عام1954 في بريمنجام بإنجلترا ، يعيش في « لينكون شاير» بالمملكة المتحدة. يشارك مع آخرين في تحرير مجلة «كادينزا» Cadenza Magazine . له العديد من الأعمال مثل (نبتة صغيرة - المشي بالمقلوب- هديةٌ من أجل باكو - أحوال المادة- البومة–الجين المدمر – الزنبقة المدهشة. وغيرها)
حاصل على عدة جوائز من بينها جائزة الكومنولث.

قنــصُ الياسَمــين

في السَّرير رقم 6، ترقدُ في صَمتِها، الفتاةُ الحزينةُ « ياسمين» . هكذا أُدعى أنا أيضًا. لكنَّ الأسماءَ محضُ نعوتٍ قشرية، تطفو كالزبَدِ، متأرجحةً فوق سطح الماء. غير أن أمورًا أكثر عمقًا و أصالةً كانت تربطُ بيننا . تلك الأمور التي جعلتْها ترتاحُ إليّ وحدي، والتي جعلتني لا أقضي يومَ عطلتي إلاّ إلى جوارها.

كان اليومُ صعبًا. عنبرُ المستشفى يئنُّ بالمرضى، الأمرُ الذي جعلَ نهاري كلَّه مشحونًا بالعمل : تفريغُ السلال جوارَ الأسرّة، ملءُ نماذجِ التقاريرِ الخاصةِ بالمرضى، تبديلُ الضماداتِ و تغييرُ الملاءات . و أخيرًا، في نهايةِ اليومِ تقريبًا، تمكنتُ من اقتناص بضعِ دقائقَ لإعدادِ فنجانٍ من القهوة، أخذتُه إلى حيث المقعدِ البلاستيكيّ برتقاليّ اللون جوار سريرِها. كم أشعرُ بالامتنانِ لتلك الدقائق التي أنعم فيها بصحبة تلك الفتاة.

- « ياسمين، كيف حالك ؟ «

أقولها، وكأنني أرحبُ بنفسي. غير إنها لم ترد. " ياسمين" لا تردُّ مطلقًا في الواقع، كانت تمرُّ بحالةِ اكتئابٍ أخذتْها حتى العمق . كانت " ياسمين"، مثلي تمامًا، إحدى ضحايا البحر.أنا أيضًا كنتُ ابنةً لأحد الصيادين، ربما من أجل هذا، تخرج الكلماتُ من فمي متقطعةً و خاطفة، مثل طُعْمٍ في سنارة صيد.

أصبُّ الكلماتِ في أذنيها، ثم أتخيلُها تغطسُ في عمق الماءِ الباردِ داكنِ الزرقة . هكذا كلَّ يومٍ، ألقي كلماتي عميقًا صوب الأسفل، تمامًا حيث ترقد صديقتي.

- « كان يومي مشحونًا، لم يكن لدي متسعٌ من الوقت لفعل شيء .»

قلتُها، بينما أمسحُ بأناملي على شعرِها .

مع فتاةٍ كهذه، يكون من الصعبِ جدًا مقاومةُ لمسِها. كانت " ياسمين" من هؤلاء النساء ذوات الجمال شديد الندرة . من أجل هذا، كان الناسُ يختلقون الأسبابَ من أجل المرور في فضائِها . أكثر من مرةٍ ضبطتهم يشربونها، يمضغون تفاصيلها . كانوا جميعا «باراكودا «[1].

حتى الممرضون الذين يدفعون المقاعدَ المتحركةَ ذات العجلات، لابد أن يبطئوا، حدَّ الزحف، حين يقتربون من سريرِها. الزائرون المتجوّلون ذوو العيون الجسورةِ الجشعة. الأطباء، الذين يتوقفون فجأةً، بغير مبررٍ، يسحبون الستائر الشفيفة الحاجبة للضوء، ثم يختبرون مجددًا أشياءَ ليست في حاجةٍ إلى اختبارٍ .

الجمالُ الباهرُ هو الشيء الذي لم نتقاسمه سويا، "ياسمين" و أنا، غير إني كنتُ سعيدةً بذلك.

- « والدك قد يأتي في أي وقت،» قلتُ لها .» قالَ الأسبوع الماضي أنه سوف يأتي .»

لم تقل " ياسمين" شيئًا. فقط ارتجفَ جفنُ عينِها اليسرى، أو هكذا خُيّلَ إليّ.

مرَّ شهران منذ وقعت تلك الحادثة فوق قاربِ الصيدِ الخاص بأبيها . الحادثةُ الذي أدَّتْ إلى سقوطِها من القارب إلى البحر، لتغورَ في عمقِ الماء، ثم تشتبكُ أطرافُها في خيوط شبكة الصَّيد . مرَّ وقت غير قليلٍ قبل أن يكتشفَ الأمرَ أحدٌ، ثم بدأ الزعرُ والفزعُ والاضطراب. نجحَ أبوها في تخليصِها و انتشالِها فوق متن القارب، ثم أبحر صوب القرية . حين وصل أخيرًا، حملَ إلى الشاطئ ما كان يظنّه جثمانَ ابنته .

- « ياسمين !» . هكذا كنتُ اهمسُ . كنت أريدُها أن تلتقطَ الاسم و حسبْ. اسمها واسمي، الذي يشبه طُعمَ الصيد. كنت أريد أن يخترقَها الاسمُ، أن تبتلعه هي كما سمكةٍ و طُعْمٍ يصادفُها.

لحسن الطالع جاء طبيبٌ شاب إلى قريتهم ذلك الصباح، ليزورَ أقاربَ له بالجوار. كان هو من استعادَ الفتاةَ الغريقةَ من حافةِ الموت، وكان هو أيضًا من أخبرني بقصتها : « فتحتْ عينيها، نظرت إلى أبيها وقالت كلمةً وحيدة، ثم غرقت من جديد، لا في الماء ثانيةً، بل في الغيبوبة القاتمة.»

« باراكودا». كانت هذه كلمة " ياسمين" الأخيرة.

حين جاء أبوها، مسح على شعرها، قبّلَ وجنتها، ثم جلس على المقعد البلاستيكي برتقاليّ اللون جوار سريرها، أخذ كفّها بين راحتيه. تماما مثل أبي، الكفُّ ذاتُها، البُنيّة الضخمة التي خشّنتها الحياة، تلك الكفُّ التي تُميزُ الصيادين التعساء . هو أيضًا تفوحُ منه رائحةُ البحر، يتظاهر بأنه على ما يرام، ياللرجل البائس !

" ياسمين" . كم تشبهني هذه الفتاة ! قواسمُ كثيرةٌ بيننا، وكأننا كيانٌ واحد. أتذكّرُ تلك الصباحاتِ الباكرة و شعري الذي يُمَسُّ كي أستيقظ، ثم يرفعني أبي من سريري نصفَ نائمةٍ، يحملني بين ذراعيه، يلقيني فوق قاربه، ثم يبحرُ .

أسترجعُ صوتَه الخشنَ في مسمعي، وأسترجعُ يدّه الخشنةَ فوق جلدي، لم أرغب في الذهاب أبدًا، لكنني كنتُ محضَ طفلةٍ، وكان هو أبًا، يفعل ما يريد.

أتذكّر الماءَ المالحَ، الشمسَ الحارقة، الزرقةَ بدرجاتِها، وأمي، التي ترتعدُ هناك فوق الشاطئ فيما يصغرُ حجمُها شيئًا فشيئًا كلما ابتعدنا . أتذكّرُ ألواحَ القاربِ الخشبيّ وصخرةَ التثبيت، أتذكَرُ صرخاتِ النوارس و احتجاجَها.

- « ياسمين، لديك حياةٌ في داخلك، حياةٌ كاملة، ألا تسمعينها تناديكِ ؟»

لا شيء أبدًا .

صُفقَ بابُ العنبر بشدة، لمحتُ والدَ " ياسمين" يمشي صوبنا، حاملا باقة زهورٍ، وابتسامةً. ابتسامةً من اجلي.

حتى في الموت، الطفلةُ الكامنةُ داخلي ترى ابتسامةَ أبي. " ياسمين" كذلك، لابدّ سترى الابتسامةَ ذاتها، ابتسامة هذا الرجل بالتحديد، الرجلُ الذي يحملُ باقةَ زهور، ويمشي صوبنا.

وقف جوار سرير ابنته، مسحَ على شعرها، بينما شيءٌ يمور بقوة في داخلي .

حدّقت في وجه " ياسمين"، وظللت أنتظر اختلاجةً من جفن عينها اليسرى.

***

1 نوع من الأسماك الضخمة (ت)

أغنية من أجل «جيني»

كان «توم» يتجه صوبَ غرفةِ المعيشة، بحرصِ رجلٍ عجوز يحملُ صينيةَ شاي، حين سمع «جيني» تتكلم. توقف فجأةً حتى أن صحن البسكويت وفنجانيْ الشاي جميعها انزلقت إلى الأمام واصطدمت بحاجز الصينية. بعض الشاي تناثرَ داخل طبق الفنجان، فوجد نفسه للحظة يحملقُ في الفوضى، قبل أن يرفع رأسَه لينظرَ، عبر الغرفة، إلى زوجته.

كانت «جيني» تجلس على الأريكة ذات المقعدين، تماما كما تركها، لكنه لمح الاختلاف واضحًا في عينيها. كانتا منتبهتيْن، مشتعلتيْن بذكاءٍ مشوّش، وكانت تنظرُ نحوه مباشرةً، بدت حاضرةً على الحال التي لم تكنْها منذ شهور. لقد حدث الأمرُ مجددًا، بينما كان في المطبخ يعدُّ الشاي، حدث مجددًا.

فتح فمه ليتكلم، لكن كلمةً لم تخرج. رأى «جيني» تمسح على تنورتها، ولاحظ ومضةً زرقاء على الأرض جوار قدمها اليسرى. إحدى فردتيْ قرطها. أصلحَ حنجرته وحاول من جديد.

- « جيني؟»

برقت عيناها وركزت، ثم رمت نظرةً على الصينية.

- « لقد سكبتَ الشاي يا توم.»

نظر إلى الأسفل مرة أخرى، ثم إلى الأعلى، أحسَّ بشفتيه تناضلان من أجل ابتسامة ما.

- « نعم فعلتُ يا حبيبتي. هكذا فعلتُ. وأنتِ أسقطتِ إحدى دلايتيْك.»

عَبَرَ الغرفة، ووضع الصينية المرتبكة ذات الصليل فوق مائدة القهوة، ثم انحنى ليلتقط قِرطَها. طقطقتْ مفاصلُ فخذه عاليا وهو يعتدل، وكذلك حين جلس جوارها، غير إنه لم يلحظ تقريبا. «خُذْ الأمرَ بهدوء»، هكذا قال لنفسه. خذه بهدوء وبطء وثبات.

خطفتْ «جيني» القرطَ من راحته.

- « لقد انخلعَ،» قالت فيما تريح يدها الأخرى فوق رسغه. نسي تقريبا كم كان صوتها جميلا، كم كانت لمستُها رقيقة. قبل كل تلك الشهور.
- «هل حدث ذلك الآن، هذا لا يمكن أن يكون، لقد كلفني الأمر وقتًا طويلا هذا الصباح كي أجعلك تبدين على هذا النحو الجيّد، وها أنت تفسدين كلّ شيء، دعوني أضرب ظهرها عقابا لها، إيه؟»

عقص شعرها خلف أذنها، وشبك قرطها في مكانه من جديد. ابتسمت له وبدت وكأنها ستتكلم، لكنها قطبّت حاجبيها وتلاشت ابتسامتها. وجدها خاوية وغائبةً من جديد، يدها ترتفع في الهواء وتبقى هناك، تحوّمُ في حيرة. ثم فقاعّة من اللُّعاب تنتفخ فوق شفتها السفلى. سحب «توم» منديلا نظيفا من جيبه ومسحها.

- «جيني؟» قالها بهدوء. «جيني حبيبتي، هل تسمعينني؟»

سيلٌ من قطرات العرق تشكلّت كحبّات الخرز فوق فوديْه فيما ينتظر إجابتها. شعر بالدماء تخفق في عنقه. مغلقًا عينيه، أخذ يصلي من أجل أن يعود الضوءُ الهارب إلى عينيها.

كان لابد أن يلحظ هذا الصباح، حين كان يساعدها كي ترتدي ملابسها. كان من الواضح أنها أفضل من المعتاد، يكفي أنها اختارت فستانا بعينه من بين العشرين المعلّقة في خزانتها. كان مسرورا، لسبب ثانويّ هو أن ذاك الفستان كان المفضل لديه، أصفر باهت وعليه طباعة بالأزرق الخفيف، أما السبب الرئيسي فلأنها بدت وكأنها تذكرت أنه المفضل لديه. كما أن عملية إدخالها فيه

كانت أقل صعوبة من المعتاد. وفيما عدا العقبة الوحيدة، حين أصرّت على إدخال قدمها اليمنى في حذائها الأيسر، ويسراها في الأيمن- وبالطبع لم تستطع أن تسير على هذا النحو - فانكفأت على السرير واستطاع «توم» أن يبدلهما، باستثناء ذلك لا عقبات على الإطلاق.

فتح عينيه، ورمق قدميها في الأسفل، وخاف أن ينظر إلى الأعلى، لم يُرِدْ أن يلتقي بذلك الخواء المفرّغ الرهيب. كان يفكر أن هذا الحذاء اللطيف، حذاءٌ محظوظ. كانت تلبسه حين حدث ذلك الأمر آخر مرة.

- « توم ؟»

ارتجفت رأسه لأعلى. لقد عادت، النور في عينيها مرتعشٌ وغيرُ واثقٍ مثل لهب شمعة في نسمة ليل، لكنه كان هناك برغم هذا. ركزت بصرها عليه، طوّحت يدها لأسفل وأراحتها من جديد فوق ذراعه.

- «الصورة يا توم، أريد صورتهم.»
- « أي صورةٍ يا طفلتي؟ أيُّ صورةٍ تعنين؟»

نتشتْ كمَّ قميصه وهزّته، كما كانت تفعل أحيانا من قبل حين كان يبدو غبيًّا وغير متجاوب على وجه التحديد.

- « أنت تعلم! صورتهم وهم يرقصون! يرقصون من أجل جيني البائسة!»

عرفَها، عرف الصورة فورًا.

- « إنها في الطابق الأعلى يا طفلتي. في أحد ألبوماتك.» لم يجل بخاطره أنَّ عليه أنْ يتركها.
- « هل تريدينني أن أحضرها لك؟»
- « نعم. الصورة.»

انتصب مترددا على غير إرادته.

- « فقط ابقي كما أنتِ الآن، سأعودُ حالا.»

كانت أمتعتها محزَّمة، مثل عتابٍ صامتٍ أنيق، تنتظر جوار الباب الأمامي. لم يحاول أن ينظر إليها، بدلا من ذلك راح يحدّق في الساعة المثبتة على الحائط في قاعدة السُّلَّم: 4:10 بعد الظهر. موعد «ديفيد» في الخامسة تماما. خمسون دقيقة إذن هي كل ما تبقى.

ترك باب غرفة المعيشة مفتوحا كي يتمكن من رؤية «جيني». أما هي فقد التفتتْ لتنظر إليه، صانعةً بيديها تلويحات تستحثه، بنفاد صبر، على المُضيّ. ابتسم لها، وبدأ رحلة الصعود الطويلة إلى حيث غرفة نومهما، بينما مفاصله تصطك مع كل خطوة.

سوف يأتي «ديفيد» في وقته بالطبع. اعتاد أن يكون دقيقًا في مواعيده، حتى حين كان صبيًّا. لم يكن هناك داعٍ للقلق مطلقا من أن يفوته باص المدرسة، وحين كان أكبر سنًّا، لم يخلف وعده إذا قال إنه سيهتم بالحديقة أو سيأخذهما للخروج في نزهة. طبيعته المتزّنة والعمليّة أفادته كثيرا. كانا دائمًا فخوريْن بأسلوب تناوله لأعماله وجعلها تسير في طريقها، حتى في أوقات الركود. وكان ديفيد على حق بالطبع. دار «شجرة الأرز» للمسنّين كانت الحلَّ العمليّ الوحيد. جادل «توم» ضد ذلك طويلا وبصوتٍ عالٍ ،لكن «ديفيد» كان مقاومًا ومصرًّا على رأيه.

- « أبي، أنت نفسك لم تعد سليما كما كنت، وأمي سوف تتدهور حالها إلى الأسوأ كل يوم، لن تتحسن أبدًا. هذا هو الخيار الأصوب بلا شك. ويمكنك زيارتها كلما أحببت. ولا داعي للقلق بشأن الرسوم. سوف أعتني بالأمر كله.»

لقد صمد. صمد وقاوم لأسابيع. إلى أن كانت الليلة التي صحا فيها على صوت الأجراس ليجد نفسه وحيدا في الفراش. لم ينس مطلقا تلك القفزة المسعورة صوب الباب الأمامي(مفصل فخذه ظل يصرخ بسببها فيما بعد). مشهد «جيني» وهي تمشي في الحديقة لا ترتدي سوى معطف السيد «داوسون»، والعلامات الدامية التي تركتها قدماها على أرضية المدخل، ومشهد ارتجاف جسدها في البرد – كان قلبه على وشك الانخلاع.

«ديفيد» على حق. هذا هو الحلُّ العمليّ والأنسب فعله.

رغم ذلك، حين وصل «توم» إلى أعلى درجات الدرج وراح يترنح صوب غرفة النوم، وجد نفسه يتمنى للمرة الأولى في حياته أن يتأخر ابنه عن موعده.

ألبومات الصور – «جيني» ملأت العشرات منها خلال السنوات- كانت مكدسة فوق رفٍّ أسفل النافذة. جميعها مؤرخةٌ بخطِّها الأنيق والمنتظم الذي كان لديها دومًا. لم يأخذ «توم»الكثير من الوقت ليجد الألبوم الذي يريد. فتحه وبدأ يقلّب صفحاته. الصورة التي أرادتها «جيني» كانت في منتصف الألبوم تقريبا. أخرجها من غلافها البلاستيكي وأخذ طريق العودة للأسفل.

الرابعة وخمس عشرة دقيقة.

شاهدته «جيني» يعبر الغرفة، ثمة تعبير على وجهها لم يستطع قراءته. جلس جوارها وعرض عليها الصورة.

- « هذه يا جين؟»

أومأتْ، أخذتها منه وقبضت عليها بأصابعَ مرتعشة. حين نظرت إلى الأعلى كانت عيناها مبتلّتيْن بالدموع.

- « أوه يا توم! انظر! كانوا صغارًا جدا! صغارًا جدا!»

- « أعلم يا حبيبتي، أعلم.»

كان حفل عشيّة الكريسماس، هو يتذكر. فريق «الأخوة دائما» يغنون أغنية « جيني البائسة». كلما أُذيعت في الراديو كانت «جيني» تغني معها، وتريد أن ترقص. «توم» كان يرقص لإسعادها، ويشعر بنفسه قويًّا واثقًا من نفسه.

- « صغارٌ جدا.»

طوّقها بذراعه، وجلسا ينظران إلى نفسيهما، يرقصان «الروك آند رول»[2]، بين بالونات الجليد والطراطير الورقية، يضحكان عاليا في الصورة التي طال نسيانُها. برهافةٍ، وبصوتٍ أعلى بالكاد من همسة، شرعت «جيني» في الغناء.

« حسنًا، جيني لديها أخٌ، وهو عنيف يتعقبني أينما ذهبت، أبوها يريد أن يطردني خارج البلدة في شاحنة،

أتمنى أن أظلَّ هناك حتى تخرج «جيني» من المعتقل، جيني البائسة ....»

أرخت رأسها على صدر «توم» الذي أخذ يهدهدها برقّة. حين تكلمت ثانية كانت همهمةً خافتة داخل قميصه.

- « تلك الأشياء. تلك الأغراض جوار الباب. هل تخصّها[3] يا توم؟»

أجابها بكلماتٍ متكسرّة وغير واضحة.

- « نعم يا حبيبتي.» أحسّ أنها أومأت. « إنه مكان رائع وفسيح، كما تعلمين. سوف تقضي «جين» أسعد أيام حياتها قبل أن تستوعبه!»

- « هل (ديفيدهم)[4] سوف يأتي الآن؟»

- « أجل، يا حبيبتي، بين لحظة وأخرى.»
- « هل ستبدو هي ... هل سأبدو أنا ... لطيفة في عينيه؟»
- « لطيفة» ليستْ الكلمة المناسبة، تبدين كقطّة مدللة. جميلة مثل لوحة.»

رفعت رأسها وابتسمت، وفيما ينظر في عينيها، فيما ينحني ليقبلّها، لمح النور يرتعد ثم ينطفئ. لهب الشمعة ارتعش ثم خبا. قبلّها على كل حال، آملاً...، غير أن شفتيها كانتا غير مستجيبتين.

حين انسحب ونظر إلى وجهها ثانيةً، وجد الخواء العميق العميق قد عاد.

- « جين؟»

لا شيء[5]. احتضنها، أرجحها بلطفٍ.

- « جيني البائسة! قال. « جيني حبيبتي التعسة البائسة.»

***

رنَّ جرس الباب في الساعة الخامسة تماما. حين فتح «توم» الباب كان «ديفيد» واقفا عند العتبة. مسح بعينيه القاعة بحثًا عن أغراض أمه، وبدا منزعجًا قليلاً حين لم يجد أيًّا منها.

- « أبي؟ ماذا هناك؟ أليستْ مستعدّة؟

نظر «توم» مليًّا إلى ولده. كانت به ملامح من «جيني»، منعكسةً في جبهته العالية الناصعة، وفي زرقة عينية الوفيرة. هزَّ «توم» رأسَه.

- « لا، ليست مستعدّةً، ولا أحد من كلينا مستعدٌ إذا أردت الحقيقة. لقد أعدنا التفكير قليلا، والدتك وأنا، ربما كان تحولاً في القلب، يمكنك قول هذا.»
- « لكن يا أبي ....»
- « توم؟ توم هل هذا هو (ديفيدنا) ؟

جال صوت «جيني» خلال غرفة المعيشة، فتوقف ولدها في منتصف الجملة. حملّق في والده، فابتسم «توم» في وجهه.

- « هل أخبرك بأمر يا فتى،» قال له فيما يأخذه من ذراعه،» لماذا لا تأتي للداخل ؟ سأضعُ غلاية الشاي على النار. أمك تبتهجُ برؤيتك دومًا ، سواء أظهرتْ هذا أم لم تظهره. وبعد ذلك سنمضي ثلاثتُنا في الدردشة، ما رأيك؟»

***

2 Rock and Roll
3 تقصد جيني، التي في الأغنية وفي ذات الوقت تقصد نفسها، وتتكلم بضمير الغائب لأنها في حال انفصال لحظيّ. (ت)
4 Their David تقصد ابنهما ديفيد. (ت)
5 لم ترد ولم تبد عليها أية ردة فعل. (ت)

قتــلُ الأرانــب

لم أتطلّعْ يومًا إلى قتل الأرنب.

لا تقلّلوا من شأن الحدث – فقد كنتُ أرتعد من الفكرة. كنت أفزع منه مثلما يفزعُ القتلةُ من أنشوطة الجلاد، أو كما يفزع غواصو البحار العميقة من التواءات العضلات، أو مثلما يفزع المدرسون التعساء من صباحات يوم الاثنين.

- « لست مضطرًا على فعل ذلك ! « هكذا قالت زوجتي «ماري»، التي كان القلقُ يزيد وجهها رهافةً، وكان هذا لطيفا منها، غير أن كلينا كان يعلم أن تلك لم تكن الحقيقة.

الحقيقة كانت وجوب أن أفعل ذلك. إذا لم أفعل، إذا ما الذي كنا نمثله هنا تحديدًا ؟ إعادة عرض لكوميديا « الحياة الطيبة «[6] ؟

إذا لم أستطع أن أجبر نفسي على قتل أرنبٍ واحدٍ أعزل، فإن كل كلامنا حول أسلوب الاكتفاء الذاتي، ومحاولة الخروج من جنس الفئران، وإقامة حياة أكثر صحيّة، لن يغدو أكثر من كلام. مجرد كلام. وبوسعي الآن أن أسمع والدة «ماري»، بوسعي أن أرى حاجبيها المقوسيْن، وابتسامتها التي تقول: ألم أقل لك ؟، وتهكمها الواثق :» أوه نعم، أنتَ دائما بارع في الكلام، أليس كذلك يا جون...!».

حسنًا، لم تكن هي من يستحق هذه الترضية، لكن على أية حال، ماري وأنا كنا في طريق أكثر انحدارا من أن نقيم ظهورنا، تجاوزنا منذ زمن نقطة اللا عودة. تركنا وظيفتينا، تركنا بيتنا، ثم انتقلنا نهائيا إلى المنطقة الريفية من البلد – والآن، انظروا إلينا.

أعجوبة العجائب، أننا كنا نفعل الشيء ذاته الذي ظللنا نحلم به طيلة العامين الماضيين. وها نحن أخيرًا، برغم كل العقبات، ندير أرضا صغيرة تخصنا.

الأسابيع القليلة الأولى من محاولة تحويل المكان إلى شكل مقبول كانت شاقة، لكن مُرضية تماما. لا شك، فقد كان الكوخ الريفيّ خشن الحواف، وينقصه بعض الأعمال الإنشائية، لكن المحيط العام كان رائعًا. لدينا ثمانية هكتارات من تربة عفيّة خصبة، محاصيل تُزرع وتنمو، دجاجات تقيقُ، بطّات توقوق، إوزات تزمِّرُ، بضع خراف تمأمئ، وبطبيعة الحال كان لدينا أرانب، أرانب مشغولة بما تحب أن تفعله الأرانب عادة.

هل كان من الممكن أن أغامر بكل هذا، لمجرد أنني لا أستطيع أن أواجه ببسالة مذبحةً صغيرة - الشيء الذي هو ركن ركين من حياتنا الراهنة ؟

كلا. إنه الوقت الحاسم. الوقت الحاسم بالنسبة لي، الوقت الحاسم بالنسبة للأرنبة.

اسمُها «تاج»، إحدى ثلاثة أرانب نيوزيلندية بيضاء. الذكر الضخم أطلقنا عليه اسم «بوبتيل»، أما الأنثى الأخرى فتُدعى «راج». كانت «راج» دائما حُبلى بحَملٍ ثقيل، ولو اتبعت «تاج» النهج نفسه لأصبح ثالوثنا الصغير في طريقه الصحيح نحو تزويدنا بحوالي 200 رطل من اللحم كل عام. هكذا تقول الكتب على كل حال.

لكن كان ثمة مشكلة. فبرغم كل جهود «بوبتيل» (ولأوفي الولد حقه لابد أن أقول إنه بذل قصارى جهده بالفعل)، إلا أن «تاج» رفضت أن تستجيب. أسبوع بعد أسبوع بعد أسبوع، و»بوبتيل» يؤدي واجبَه الرجوليّ بحماسٍ مذهل، غير أن «تاج» ظلّت على عقمها العنيد.

إذا كانت الأنثى غير منتجة، يقول خبراء الاكتفاء الذاتي، فإن مكانها الوحيد إناء الطهي ! وكانت «تاج»، تلك الأرنبة اللطيفة، من دون شك غير منتجة. حسنًا، لا مكان للعائشين على

الصدقات في مزرعتي الصغيرة. «تاج» لابد أن ترحل.

- «إذا لم تصبح حُبلى على نهاية الأسبوع،» أخبرتُ ماري، « إذن سيكون. سنجلب أنثى أخرى، وسيكون عليّ أن .... ، أنتِ تعرفين.»

وجاءت نهاية الأسبوع، وكل ما يمكنني قوله إن «تاج» ظلت عاقرًا كما هي دائما.

- « غدًا،» هكذا أعلنت بينما أتجه إلى زر الكهرباء لأطفئ المصباح جوار السرير. « سوف أفعلها غدا.»

-

في الظلام كنت أسمع تنفس «ماري».

- « هل أنت واثق؟»
- « نعم، لقد حان الوقت.»

لم أستطع النوم تلك الليلة. كنت أسقط في النوم للحظات قليلة، فإذا بالذي سوف أفعله في الصباح يقفز في أحلامي على هيئة شبح أرنب مخبول يتلوى، طوله 15 قدم، يترنح في خطوته على طريقة مشاهد أفلام الرعب.

رقدت عيناي شاخصتان، أحملق في الظلام، أفكر، أتذكّر.

أعود بالزمن إلى الوراء، حين كان قرار الانتقال إلى الريف مازال في طور المناقشة، كان أصدقاؤنا يستمتعون باستجوابنا حول طبيعة حياتنا الجديدة والتجليات التي سوف نتورط فيها بناءً على ذلك. اهتموا على نحو خاص بالجزء الخاص بعملية الذبح. بدا أن أحدا لا يعاني مشكلة كبيرة في التعامل مع الدجاج، أو الإوز أو الخراف، غير أن الكثير منهم روّعتهم فكرة أن نربّي، نقتل ثم نأكل الأرانب.

صديقانا الحميمان، «ستيف و بولين»، كانا يربيان زوجًا من الأرانب المنزلية الأليفة ذات الشعر الغزير والحيوية التي تنطق بالجمال واللطف، اقتنى الصديقان هذين الأرنبين من أجل تسليّة أطفالهما- ولذا لم يكن مدهشا أن يكون انزعاجهما شديد الخصوصية.

- « لن تقدر مطلقا أن تفعل ذلك،» هكذا قال «ستيف» في إحدى ليالي لقائنا في الحانة. « ليس حين تنظر إلى الأسفل فتجد هاتين العينين البنيّتيْن الواسعتيْن تنظران إليك، وذاك الأنف الصغير المرتجف....»

- « الأرانب النيوزلندية البيضاء لها عيون حمراء.» قلت له.

هزت «بولين رأسها. « ستيف معه حق، مازلت أذكر الحال التي انتابتك حين تعثرت وانقلبت فوق قطتنا.»

أجفلتُ. دهسي لقطتهما كان أسوأ ما مرَّ بي. أدركت منذ عهد بعيد أن «بولين» لن تتركني أنسى ذلك الحدث أبدًا.

- « الأمر مختلف،» أجبتُها بينما أختبئ خلف كأس البيرة، «الأمر مختلف تماما.»

- « ياللكائنات الصغيرة التعسة! « قالت بابتسامة نصفُها غضبٌ ونصفُها استهزاء. « على الأقل لا تتوقع مني أن أكون لطيفة معك بعد أن تكون قد اغتلت ملايين من الأرانب الرضيعة البريئة، هذا كل ما في الأمر. أنا أتكلم عن الدماء التي تلوّث يديك...»

كانا على حق بلا ريب. أدركت دائما أنني سأواجه معضلةً مع عملية القتل تلك، لكني استطعت أن أطمئن نفسي مادام الأمر مازال مرهونا بالمستقبل البعيد.

بوسعك أن تصنع حالة ذهنية تمكنّك من الكلام عن الذبح، السلخ، التقطيع الخ...، مستخدما تلك المصطلحات العملية الهادئة ذاتها التي تتداولها كتب الزراعة. بوسعك أيضا أن تتعلم كيف تنتزع نفسك من المظاهر الريفية غير المبهجة عن طريق أن تتخيل كم هو رائع أن تعيش في مكان ريفي بسيط مع « فليسيتي كاندال».[7]

غير إني عدلت تماما عن فكرة النوم، ومع بداية تسلل الضوء الخافت عبر الستائر، كان عليّ قبول حقيقة أني لن أستطيع مجددا أن أستخلص نفسي أو أصرف تفكيري عن الأمر. الوقت الحاسم. أما فيما يخص « فليسيتي كاندال» – فلم تكن في أي مكان حتى تُرى.

حول الخامسة صباحا، تسللتُ من السرير، ارتديت ملابسي وتسللتُ ببطء إلى الطابق الأسفل، تاركا «ماري» تتنازعها أحلامها الخاصة . ووددتُ أن أنهي الأمر بأسرع ما يمكن، ومن الأفضل أن يتم بينما هي مازالت تغط في النوم.

في الخارج، كانت شبورة الصباح الباكر تتدفق وتغطي الأرض. بدا ذلك مناسبا على نحو ما.

كان كل من « راج، وتاج، وبوبتيل» في أقفاصهم المنفصلة في الحظيرة الصغيرة خلف الكوخ. كانت أنوفهم تختلج تجاهي كلما اقتربت أكثر، بينما أخذ»بوبتيل» يضرب الأرض بأقدامه.

إذا قُدِّرَ لك أن تقتل أرنبا، فإليك ما يجب أن تفعله:

تأخذ ساقيه الخلفيتيْن بيدك اليسرى، تقبض على رأسه بيمناك، ثم تلوي الرأس إلى الوراء. في ذات الوقت تضغط يدك إلى الأسفل كي تشدَّ العنق. إذا أديت الخطوات على نحوٍ صحيح، ستنكسر عظمة العنق ويحدث الموت تقريبا في لحظة.

قرأت التعليمات عشرات المرات. أحفظها عن ظهر قلب. بل إني مارست كل تلك الخطوات من قبل على منشفة الصحون باعتبارها أرنبًا بديلا!

غير إني بمجرد أن أخرجت «تاج» من قفصها،..... ارتعشت يداي.

حملتها إلى الخارج حتى لا يتمكن «راج و بوبتيل» من رؤية الذي بصدد أن يحدث. داعبتها، أخبرتها أني آسف، ثم، بأسرع وأدق ما يمكن،

قتلتها.

***

كان الأمر رهيبا، سوف لا أنساه مطلقا. ولن أنسى أبدًا كم كان شاقا أن أتراجع.

غير إني أنجزت الأمر على نحو صحيح. نعم على الأقل أنجزته على نحو صحيح. إذا كانت قد تألمت، فلم يكن ذلك إلا لثوان قليلة.

بعدما قتلتها، كان لزاما عليّ أن أنجز عمليتي السلخ والتقطيع أيضًا. أعرف النظرية – عليك أن تحزم ساقي الأرنبة الخلفيتيْن فوق مفصل القدم مباشرة ثم تعلقها على خطافيْن. بعدها تشقُّ قَطعًا صغيرا أعلى مفصل كلِّ كاحل من ساقيها الخلفيتين، ثم تمد القطع حتى فتحة الإست. بعدئذ تنزع طبقة الفراء عن الجلد عند ساقيها ثم تقشرُّها عن سائر الجسد.

فعلت كل ذلك، وفعلته على نحو جيد. لقد هيمنت على الموقف الأساسي ، جابهت الأمر الذي طالما أفزعني ، تصرفتُ كرجلٍ. وكنت بالفعل راضيًا على نفسي.

حين فتحتها لأفرّغ أحشاءها، تبخرت كل مشاعر الغبطة.

***

هبطت «ماري إلى الطابق الأسفل ووجدتني جالسا في المطبخ.

- قالت « ماذا هناك؟»

أخبرتها.
تعرفت على الكبد، القلب، الكليتيْن، لكن ثمة أشياء أخرى في الداخل لم أتبينها مطلقا. أشياء لم تكن في الكتاب.
عشرة أشياء.
- « كان يجب أن أنتظر يا ماري، «تاج» كانت ملأى بالصغار.»
برغم كل هذا كانت «تاج» حُبلى.

***

6 - ***The Good Life*** فيلم كوميدي بريطاني يتناول حياة أسرة من الطبقة المتوسطة. (ت)
7 - Felicity Kendall - ممثلة إغراء أمريكية . (ت)

المشي بالمقلوب8*

في أحلامي، أحلامي الطيّبة، «ماري آيريس ماكورماك» – التي أسميها «ميم» اختصارا – دائما ما أراها تؤدي حركة الشقلبة، أي تقف على يديها، ركبتاها مثنيتان، وقدماها مزروعتان بثبات صوب حائط الطوب الأحمر في فناء الملعب. تنورة زيّها المدرسي تتدلى مثل ناقوسٍ ناعم أخضر اللون حول لسان الناقوس نصف المختفي: رأسها، وحين تدير رأسها لتواجهني، أرى عينين غريبتين ذكيتين مقلوبتين ترمقانني من أسفل الأهداب المقلوبة. تنظر بعيدا، وبحركة خاطفة من شعرها الأشقر تكنس غبار الأسفلت فيتحرك في دوامات.

حالِمًا، نصفَ واعٍ بالحقيقة، أتساءل كم من الوقت مضى منذ تلك الظهيرة الزرقاء الصفراء الدافئة، داخل خيمة شُقَيقتها في تلك البلدة الصغيرة. تسعة وثلاثون عاما ؟أربعون؟ هل يمكن أن يكون ذلك حقيقيا؟ هل مضى بالفعل كلُّ ذلك الزمن الطويل منذ أن تركتني وانتقلتْ إلى المدينة، إلى حيث الأضواء البراقّة، لندن؟

من رأس التنورة-الناقوس ، ترتفعُ في الهواء ساقان مضبوطتان ، زوجان متماثلان من الدعامات الطائرة تقبلاّن الحائط من أجل أن تبقيه مكانه. تنفردان فجأة، تنفصلان بكل مهارة، فتصبحان حرف V يتجول بينما تتقدم «ميم» نحوي ببطء، متزنة، مستقرة، يداها تشكلان زاوية قائمة مضبوطة مع معصميْن قويين مرنيْن. شيء مدهش. V يعني علامة النصر.

أسمع جلجلةَ عاليةَ النبرة لضحكةٍ صادرة من باطن الناقوس، وفي ظلمة البقعة المحرّمة – ذاك المكان حيث ليس لعينيّ عملٌ شرعيٌّ فيه – أبصرُ قطعة ملابسها الداخلية داكنة الزرقة.

ثلاث مراتٍ في الأسبوع الماضي أصحو عند هذه النقطة من الحُلم، وأنظر صوب بحيرة النور حيث تجلس ممرضات الليل. أعرف إحداهن جيدًا– الممرضة "ماري أوكانُر"، ذات الشعر الأحمر واللكنة الأيرلندية المحببة. كان أبوها هو ساعي البريد الخاص بي، يتسلّم رسائلي، يجمع ردودي، يجلب لي الصحيفة الجافة والإحباطات. أخبار المدينة الضخمة - المدينة التي هي أضخم مما يحتمل ولد مثلي من بلدة "فريستون" الصغيرة.

آه يا "ميم".

حين تتحرك الممرضة "ماري أوكانُر" على هذا النحو الواثق، وتضحك بتلك الطريقة، تذكرني بكِ.

أحب أن أتخيّلها وهي تقف، تتثاءب، تنتزع نفسها من موقعها ومن بحيرة النور الساطع الصغيرة هناك. أحب أن أتصورها وهي تنقلب، تمشي على يديها صامتةً خلال ردهة غرف النوم، زيها الأبيض الهش أضيق من أن يصنع شكل الناقوس، غير أن قبعتها الجادّة ستسقط، وسيتماوج شعرها الأحمر على الأرض حرا طليقا.

أراها تقف عند سريري، تبتسم ابتسامة واسعة، تلف دورةً بطيئة، ثم تعود أدراجها إلى طاولتها. نعم. حتى من دون ناقوس، حتى من غير أن ألمح قطعة ملابسها الزرقاء الداكنة، سوف يظلُّ ذلك شيئا جديرا بالاستيقاظ من أجله.

أغمض عينيّ وأفكر فيكِ يا "ميم" – مازلتِ تمارسين الشقلبة في أحلامي، مازلت ترينني قطعتك الداخلية، مازلت تسببين لي المتاعب ... بعد كلِّ تلك السنوات.

***

8 * - فازت القصة في مسابقة «وورد سميتن» 2003 - *Word Smitten*

النبتة الصغيرة

إنه الصباحُ الباكر، صباحُ عيد ميلاد «سايمون» الحادي عشر، وها هو يحلم بـ» كانوني» ثانيةً، يحلم بالعالم الغريب الذي يشاركها فيه أحيانا. ولو أن هذا المرة مختلفة. فهو أبدًا لم يرها بمثل هذا الوضوح من قبل، لم يكن يقظا وواعيًا بالفروق بين عالمها وعالمه قبل الآن. تغمره مشاهد وأصوات وروائح إفريقيا .

كانت « كانوني» تمتطي فرع شجرةٍ تحلّق على بعد متريْن فوق فراش «سايمون»، تتدلى ساقاها الطويلتان، و قدماها الحافيتان تتأرجحان بالقرب من وجهه. ثمة قطعٌ في الجانب الأسفل من أحد أصابع قدميها، وكان بوسعه أن يرى كعبيْ قدميها العاريتيْن بشقوقهما السميكة وبشرتهما الغليظة.

خارج شرفة حجرة نومه، تزأر حركة المرور في لندن تحت الغيوم الرماديّة. ثمة كلبٌ ينبح. ومن بعيد يصرخ جهاز إنذار إحدى السيارات.

- « مرحبًا أيتها النبتة الصغيرة، عيد ميلاد سعيد.»، قالت «كانوني» .

يبصر «سايمون» شفتيها تتحركان، يسمع كلامها داخل رأسه – لكنه يعلم أن صوتها لم يدخله بالطريقة المألوفة. «كانوني» تتكلم لغتها الخاصة، فمُها يتشكّل على نحوٍ غريب، يأخذ أشكالا متحركة، غير أن الكلمات التي يسمعها كانت دائما كلمات إنجليزية.

- «شكرا لكِ يا «كانوني»، قال لها.

يتكلّم بهدوء لأن نومَ أبويه خفيف وهو لا يريد أن يسمعاه يكلّم نفسه ثانيةً. ليس بعد الذي أجبراه على فعله في المرّة الأخيرة.

ابتسمت « كانوني» ابتسامة عريضة، فظهرت أسنانها مثل صدمة بيضاء داخل الإهليليجِ المظلم من وجهها.

- «تعال.» قالت، بينما تهبط للأسفل.

يدفع لحافه بعيدا، يأخذ يدها، وبقفزة واحدة يسيرة يلحق بها فوق غصنها الإفريقيّ، يشعر بقشرة الشجرة خشنةً تحت فخذيه النحيلين. ينظر إلى الأسفل حيث الطريق الجافة القاحلة التي تصل بين الشجرة وبين القرية، ثم يبصر الشمس، كرة برتقالية ضخمة، تصعد فوق مجموعة من الأكواخ الصغيرة المتربة. السماء في الأعلى مثل صحنٍ مقلوب من الأزرق والذهبيّ.

إذا ما أدار رأسه قليلا، سيظل بوسعه أن يرى غرفة نومه، الملصقات على حوائطها، تليفزيونه، حاسوبه.

توقّف إنذار السيارة، في حين ظلّ الكلب ينبح.

- «هذا عجيب !» ، قال هذا بينما يشعر باتزانه واستقراره فوق نقطة التقاء عالميْن.
- « نحن فوق صهوة حصان، منطلقين صوب «مومباسا»، حصانٌ خشبيّ على شكل شجرة»، تقول كوناني.

تضحك، و معًا يشاهدان فجر يومٍ إفريقيّ جديد.

فجأة ينتبّه «سايمون» إلى بيجامته التي على شكل «الرجل العنكبوت». كيف يبدو شكله الآن، وهو يمتطي هذه الشجرة ؟ يبتسم ابتسامة عريضة.

- «انحني قليلا إلى الخلف، أيتها النبتة الصغيرة،» تقول كانوني.

يفعل ذلك، فتطوّقه بذراعيها. يشعر بدفء جسدها، يستنشق الرائحة الطيبة لبشرتها، ويشعر بالأمان. يشعر بالانتماء.

- « بالتأكيد أنت تنتمي إليّ،» تقول «كانوني» فيما تقرأ أفكاره. « كلانا منتميان سويًّا، أنتَ وأنا. بذرتي تنمو داخلك، بذرتك تنمو داخلي.»

يضع «سايمون» يده في يدها. تتلمسُ الكدمات الزرقاء، الخطوط الحمراء الغاضبة على معصمه. تمسح عليها بإصبعها.

- « والدك؟ « تهمس فيما تقبّل أذنه.

«سايمون» يومئ برأسه موافقا.

تتنهد «كانوني» . يستطيع أن يخمن أنها تنظر ألان في أرجاء غرفة نومه.

- « أنتَ تملك الكثير جدًّا،» تقول كانوني. « ورغم ذلك أنتَ تملك القليل جدا.»

ينظر «سايمون» إلى القرية المغبرّة، يرى والد « كانوني» يبرزُ فجأةً من أحد الأكواخ. يقف في مدخل الباب، ملوّحًا في الضوء الذهبيّ.

- « أنتِ تملكين القليل جدا،» يقول سايمون،» ومع هذا أنتِ تملكين الكثير جدا.»

تعانقه «كانوني».

- «اليوم عيد ميلادك أيتها النبتة الصغيرة. أنت كبير بما يكفي. لدي الكثير مما يجب أن أخبرك به.»

لفترة من الوقت جلسا سويا في الشمس المشرقة، يتكلمان عن نفسيهما، وعن النبتات الصغيرة الأخرى.

يتكلمان عن كيف سيجعلان كل شيء في العالم يتغير.

***

الأشياءُ التي تركتِها وراءَكِ

طوال الأسبوع الماضي، لم يكن بوسعي النظرُ إلى سلّة الغسيل بالحمام. مازالت ملأى بأشيائكِ. الحقيقةُ أنني أصبحتُ خائفًا منها- خائفًا مما قد أجده داخلها. قطع الملابس الداخلية، مشدّات الصدر، بنطلون الركض الخاص بكِ. جواربك. أنا واثق تقريبًا أن زوج الجوارب الذي أهديته لك في عيد ميلادك الأخير كان هناك- الجورب الذي يحمل تطريزًا عند الكاحل يمثل رمز الأنوثة. لو رأيت الجورب ثانية، لا أعرف ماذا سيفعل بي- لذلك، كلما أردت استخدام التواليت، أدرتُ وجهي للجدار، ورحتُ أحملق في تشكيلات ورق الحائط. أتظاهر وكأنني في محيط مختلف حيث الحمامات خاوية، وسلال الغسيل ليست موجودة.

لكنها هناك، أعلمُ أن سلالَ الغسيل موجودة. في المحيط الذي تركتِني فيه، سلال الغسيل موجودة في كل مكان. كلما استعملتُ التواليت، أعلم أنني على بُعد قَدَمٍ من أشيائنا، من الأشياء الخبيئة بالداخل. الأشياء التي تهتفُ بي. الأشياء التي خلّفتِها وراءكِ.

من أجل ذلك، سوف أتعامل معها اليوم. اليوم سأُفرغُ السلّة.

وها هي الطريقة التي سيتم بها الأمر.

سأجد زوجيْن من قطع الملابس الداخلية التي تخصُّك، لونها أصفر باهت ولها أحزمة حول الخصر. بها شعرتان مجعدتان من شعرك.

سأضعها في راحة يدي لبرهة، ثم آتي بقصاصة ورق. أفردُ الشعرتين على الورقة وأحاول أن أقيسهما. ذلك أفضل ما يمكن فعله، أوقن أن فعلَ ذلك سيجعلني في حال أفضل. مثل ذاك اليوم الذي أعاد فيه البوليس أغراضك الشخصية، قلتُ شكرًا لكم، كم أنتم طيبون، وبعدما مضى رجال البوليس، تناولتُ ميزانَ المطبخ وشريط القياس ورحتُ أزن أغراضك وأقيسها.

هل تذكرين مفاتيحك؟ وزنهم 78 جراما، وكان الأكبر بين المجموعة(مفتاح سيارتك) بطول 73 مليمترا.

شعرتاك ستكونان وغدتيْن إلى حدٍ ما. تتصرفان على نحوٍ سيء. كلما شددتهما تلتفان حول إصبعي من جديد . لا جدوى، لن يفعلا ما أريد.

تبدوان مألوفتين؟

سوف أنجح في النهاية. إحدى الشعرتيْن ستكون بطول 24 مليمترا، والأخرى 27،5 مليمترا. سأقيس بعضًا من شعيراتي لأقارن. ستبدو أطول بكثير، وأتساءل ما إذا كان هذا بسبب اختلاف الصفات بين الذكر والأنثى، أم أن الشعيرتيْن اللتيْن وجدتهما تصادَف أن كانتا قصيرتين.

سألصق شعرتيك على الورقة، واحدةً جوار الأخرى، أغطيهما بشرائح السيلوتيب، وأدوّن تفاصيلهما. ثم أضع الورقة في مظروف أكتب عليه بخطٍ أنيق «شعيرات كاثي(2)» ، ثم أضعه في صندوق، في محاذاة بقية الأشياء التي نجحتُ في إنقاذها من الغرق.

أخيرًا، في نهاية ساعة الليل الأخيرة، سوف يغدو المنزل كبيرًا جدًا، ولن يكون بوسعي النوم، لا شيءَ بالتلفزيون سوى بعض برامج البورنو الخفيفة وعروض المسابقات، لذلك سوف أُخرج الصندوقَ من مخبئه، وأتعامل معه بتريّث، أستنشقُ، أمتص أريجَكِ الخاص بشفتيّ وأنفي ولساني وأصابعي.

الأبواب الخارجية، هكذا أفكر بها. الأشياء التي تركتِ وراءكِ هي البوابات الخارجية، مداخل الذكريات، ممرات الوميض والتغيّرات. أتجاوز هذه، وتلك، لأجد نفسي في بقعة مختلفة منك. بقعة

مختلفة منّا.
لديّ خاتمُ الزفاف. حين ألتقطه، لا أتذكّر مكتب «باكستون» لتوثيق الزواج، ولا كعكة الزفاف ذات الخمسة عشر إسترلينيًّا، التي كانت شديدة الصلابة حتى إننا لم نستطع تقطيعها، ولا أتذكّر حقيقةَ أنك لم تستطيعي قول كلمة « عائقٌ شرعيّ». تلك الأشياء تأتي لاحقًا. الذي أتذكّره أولا هو اللحظة التي قذفتِ فيها بالخاتم، الخاتم الذي اشتريته من أجلك، ومرّرتُه حول إصبعك. طوحتِ به في وجهي. وأتذكّر كيف ضاع منّا وانتهى به الحال في وعاء الكلب- وبعدها بلحظات، داخل الكلب ذاته. وأتذكّر الراحة على وجهك حين خرج أخيرًا من الناحية الأخرى.
أتذكّر كيف جعلتِ الماء الصافي ينسابُ فوقه في حوض المطبخ لتنظفيه من غائط الكلب، تضحكين قائلة:
« يجب أن يصبحَ هذا الأمرُ رمزًا.»
وكنتِ محقّةً، فقد كان.
لكنني لا أذكر أي رمزٍ تقصدين يا كاثي. لا أذكرُ ماذا يعني ذلك. ربما يعني لا شيء، ربما كما قلتِ مرةً، الأمرُ كله نكتةٌ كونيّة.
رغم ذلك، سوف أستمرُ في تجميع الأشياء.
الأسبوع الماضي وجدت قلامةً من ظفر إصبع قدم كانت مختفية تحت حوض الحمّام. بها أثر من طلاء أظافر أحمر، لهذا عرفت أنها لك. وكذلك – أظن في اليوم ذاته – صادفتُ قائمةَ مشترياتٍ مجعدةً في جيبِ معطفك، وكذا إحدى شخبطاتك: أرنبُ رسومٍ متحرّكة مرسوم بعشوائية على ورقة صفراء- تضعينها داخل الكتاب كي تحددي أين وقفتِ. « هاري بوتر» و حجر الفلاسفة. الكتاب الأخير الذي كنتِ تقرئينه، لكن الأرنبَ أخبرني انكِ لم تنتهي منه. وصلتِ إلى صفحة 29 – تمامًا مثل عمرك. هل يعني ذلك شيئا؟
لا أظن يا كاثي. لكنني سوف أحتفظ بالكتاب والعلامة وقلامة الظفر وبالشعيرات وبمفتاح سيارتك وخاتم الزفاف وكل القطع الحزينة الآسفة التي تركتِها خلفكِ. سوف أحفظها جميعا في صندوقي.
وسوف أعملُ قدر إمكاني على الاحتفاظ بالشيء الأشد حزنًا والأشد أسفًا منها جميعا. سوف أحتفظُ بنفسي.

***

البومـــــة

كان الكوخُ بديعًا – كلُّ النوافذ من ألواح خشب الصنوبر بارتفاع السقف، على مدار ثلاثة أوجه من أوجهه الأربعة. أحبَّ «سايمون « شكلَ الكوخ بمجرد أن رأى صورته في كتيّب الإجازات. لكنه أحب الكوخ الحقيقي أكثر.

- « ما رأيكِ؟» سأل «ماري» بينما تندفع سيارتهما صوب المدخل عبر الطريق المغطى بالحصى الصغير.

التفتت إليه وتنهّدت قائلةً:

- " هلا أعطيتني فرصة ؟"
- " معذرةً ." قال سايمون

أوقفَ السيارة وهبطت ماري. مشتْ صوب السياج المطليّ الذي يفصل واجهة الكوخ عن الحقل المواجه. سياجٌ أبيض اللون من الأوتاد المتوازية، يشبه ذلك الذي يعرف أنها حلمت به طويلا حين كانت فتاة صغيرة. تحقّق حُلمها أخيرًا عبر قرار سايمون الجسور. كان هذا الحلم هو أحد أسباب اختياره هذا الكوخ تحديدًا وهذا الموقع تحديدًا.

راح يتأملّها لحظةً، ويفكر " زوجتي، ماري التي تخصني".

شاهدها وهي تثبت أطراف أناملها – واحدًا إثر واحد – فوق حافة السياج، وتذكر كيف اعتادت أن تفعل الشيءَ نفسه فوق ذراعه العارية. قبل زمنٍ من الآن. زمن طويل.

نزل من السيارة ولحق بها. كان المكان راحةً للعين ولساقيه المنهكتيْن. بالطبع كأس من شرابٍ قويّ سيكون فيه راحة أكبر، لكنه قد وعدها، بوسعه أن ينتظر. وقف جوار سياج ماري، وراح يدلّك عُقَد التوتر المتجمعة في عموده الفقري، وقف يعبُّ من هواء الريف المضفور بروائح الأرض والخشب الدافئ والأعشاب النامية.

أكوام الحشائش المُزالة من المرج العشبي الخشن أمامهما كانت منحدرةً بعيدة عن كوخهما - الذي سيظل كوخهما على مدى الأسبوعين القادمين، أو طالما استطاعا أن يبقيا في رفقة بعضهما البعض – ومكوّمة في اتجاه شلال المياه الذي يلمع أسفل الوادي المنبسط.

وخلف الماء، ربما على بُعد خمسين مترًا، كانت الغابة. جذوع الأشجار وأوراقها المتحورّة بدت رائعة الجمال في ضوء الشمس المائلة.

نظرت ماري نحو المشهد غير إنها ظلّت صامتة، وفكّر سايمون كيف يمكن أن تؤدي تلك الرحلة إلى استغراق كلٍّ منهما أكثر داخل عالمه الخاص المنفصل، رأى نفسه يمشي وحيدًا خلال الغابة التي تناديه، بينما الغبار وجذور النبات المتكسرّة تحت قديمه. لم يرق له ذلك.

- "إذن ؟" قال متسائلا.

ثمة لمحة من الغضب شابت صوته. سرعان ما ندم عليها.

حولّت ماري عينيها إليه، تحت ضوء الشمس الآخذ في الزوال، لكنها لم ترفع يدها لتحجب الضوء عن عينيها. أطراف أصابعها كانت مجمدّة فوق قضبان السياج.

- " إنه جيّد" أجابت.
- " جيّد وحسب ؟"

أدارت رأسَها ونظرت مجددا نحو الحقل. حاول أن يرى المياه والغابة خلال عينيها.

- " كلا، " قالت، " ليس جيدًّا وحسب. أفضل من جيّد. ربما مثاليّ."

أومأ برأسه.
- " حسنًا، كل شيء على ما يرام إذن." قال.
بعد برهة عادا إلى السيارة وبدآ في تفريغ أغراضهما.
***
كان بالكوخ سريران متشابهان. سألها إذا كانت ترغب في ضمّهما معا. نظرت إليه، لكنه لم يستطع قراءة التعبير فوق وجهها.
- " هل يزعجك إذا لم نفعل؟ " قالت. " ليس الليلة على أية حال. ربما فيما بعد."
***
جلس على أحد المقاعد ذات المساند جوار النافذة داخل الكوخ، وراح يتأمل ماري فيما تتحرك في الخارج. بعد برهةٍ عادت أدراجها إلى مكانها جوار السياج وزرعت نفسها هناك، ناظرةً إلى القمر. كانت ليلة دافئة. النشرة الجوية وعدت بهذا. كل شيء على ما يرام حتى الآن. الكلمات كانت قليلة، لكنهما أفرغا أمتعتهما، أعدا وجبةً سويًّا، جلسا، تناولاها معا. أطلق نكتةً. ابتسمت ماري. لم تذكر شيئا بشأن إسرافه في الخمر. وهو لم يثر مشكلة بشأن السريرين.
- " هذا مكان جميل،" قال هذا للغرفة الخاوية.
رفع كأسه، وشاطر الكوخ نخبه ، شرب نخبَ الغابة، شلال الماء، شرب نخب قراره. ثم نظر عبر الزجاج، ورأى ماري في ضوء القمر وقد تحوّلت إلى تمثال من الذهب.
كان قد حجز للإجازة من غير أن يخبرها – باغتها بالقرار أمس، وضعها أمام الأمر الواقع. اشتعلت غضبًا، وكادت ترفض المجيء. مرّ الوقت فيما يقود السيارة إلى هنا غير مريحٍ على الإطلاق. لكنهما هنا الآن، كان سعيدا ويأمل أن تكون ماري سعيدة أيضًا.
- " مكان جميل،" قالها ثانيةً. رجع الصوتُ إليه، دافئًا خشبيًّا عبر ألواح الكوخ.
التفتت ماري. توقفتْ. ثم التفتت بعيدا من جديد.
في القديم كانت تستطيبُ صوتَه. كم قالت: " حسنًا، رغم إنك تشبه الكلب، لكن على الأقل لك صوت لطيف."
كانت تضحك ضحكة واسعة وتلوي شفتيها حين يعرض عليها أن يقرأ لها في السرير، كان يحب أن يراها تسقط في النوم على صوته فيما يقرأ. مازال بوسعه أن يشعر بأناملها ترتاح فوق فخذه، بوسعه أن يتذكر شعوره بالأمان وهي تنجرف بعيدا في قصص هـ إي بيتس أو توماس هاردي. حتى بعد أن تنام كان يواصل الحكي، كان يحب أن يغرقها في صوته ويرسل بها إلى الأحلام.
عند نقطة ما توقفا عن فعل ذلك. لا يتذكر لماذا، أو متى.
رشف من كأسه وفكر في اليوم الذي حملها فيه إلى أعلى السلم في بيتهما الأول – شقة ضيقة أعلى دكان بيع الدهانات. تألم ظهره يومها، واضطر إلى النوم على الأرض ثلاث ليال. كانت تطعمه حساءً، ثم جاءت البيت بكلبٍ صغير. كانوا غالبا، في تلك السنوات الأولى، يجلسون ثلاثتهم في الشرفة يشاهدون العابرين، المرور هنا وهناك، السيارات التي تزمجر في اتجاه الشارع الواسع.
- " أنتَ تحب أن تراقب الحياة، أليس كذلك؟ " قالت ذلك مرةً.
فحص انعكاسها الباهت على الزجاج، وشاهدها تراقبه.
- " نعم. مراقبة الحياة ليست مخيفةً مثل معيشتها."

خبطت شعره ولامست النافذة بأنفها.
- " مراقبة الحياة عبر الزجاج،" قالت. وبقيت معه.
ضحكا وقتها كثيرًا. حتى كلبهما ابتسم. بالتأكيد لم يكونا قد عرفا، لم يكونا قد قدرّا الزمن، والمكان.

***

كان نصف نائم في مقعده حين دخلت ماري الكوخ راكضةً.
- " تعال إلى الخارج،" قالت. " أسمعُ شيئًا."
وضع كأسه وتبعها. استقبله الليلُ، والنجوم في كل الفضاء. شبحٌ أسود اللون كان يقطع الهواء فوق رأسيهما، ويطلق نداءً غامضًا.
- " أليست هذه بومة ؟" همستْ.
- " لا أدري،" ردَّ هامسًا أيضًا. " جائز."
جاء النداء ثانيةً، من وراء الشلال هذه المرة ، هناك عند الغابة. صوتٌ حزين، هكذا فكّر سايمون. صوتٌ محزون شجيّ شقَّ طريقه عبر حوائط دفاعه فراح يتذكر طفلتهما – طفلتهما تقريبًا. كانوا سيدعوانها " كيت"، اشتريا ملابس أطفال، ورسما الخطط. بلا جدوى. لم تعد ماري تتحدث عنها أبدًا. لم يصبح أبًا، لكن ذلك لم يعد مهمًّا الآن. حتى وقتها، لم يكن الأمر مهمًّا جدا. الأشياء كانت مرتبكة، " كيت" كانت محض احتمال. أُخِذَت منهما. الكوخُ كان احتمالا آخر، فرصةً، ربما فرصتهما الأخيرة. لا يريد لتلك الفرصة أن تؤخذ منهما أيضًا.
- " أعتقد أنها كانت بومة." قالت ماري.
نظر إليها، تألقت عيناها في ضوء القمر. أراد أن يقبلّها. تمنى لو لم يترك الخمر في الكوخ.
- " أعتقد ذلك أيضًا." قال.
لمس يدها. فابتسمت ثانيةً.

***

في الثالثة صباحا كفَّ عن محاولة النوم. تسلل خارج غرفة النوم. صبَّ كأسًا آخر من الإسكوتش. عاد إلى مقعده جوار النافذة. كانت ماري أسدلت الستائر. قام ورفعها، ونظر إلى الخارج صوب الحقل المُضاء بنور القمر. كان السياج شديد البياض، بدا سابحًا يطفو في الظلام.
- " هل انتهى كل شيء؟"، سألت قبل أسبوعين. تذكر جهاز التليفزيون القابع في ركنه، يغمغم بأخبار السادسة.
- " ماذا؟ " أجابها، ثم توقف. زلزالٌ آخر في مكان ما جنوب أمريكا. تظاهر بأنه يستمع.
- " هل انتهى الأمر؟"
لم يكن قادرًا على ملاقاة عينيها. رشف من كأسه كما يرشف منها الآن.
لم تتكلم لبرهة. ثم قالت " أظن ذلك."
من خلف السياج ذي الأوتاد لمح شبحًا مظلمًا يحلّق في الهواء. كان الهجومُ مباغتًا، قويًّا بما يكفي لجعل الكوخ يرتعد، وعالي الصوت بما يكفي لجعله ينكفئ إلى الوراء، فاندلق الخمر على السجادة.
تصدعّت النافذة طوليًّا من أعلى إلى أسفل. ثم سمع ماري تصرخُ من غرفة النوم.
- " سايمون ؟ ما هذا ؟ يا إلهي! ماذا فعلت ؟"
- " لا شيء،" ردَّ عليها. " شيءٌ ما خبط النافذة. أنا ذاهبٌ لأرى."

كان ضوء القمر خافتًا لكنه ساطعٌ. استغرق ثوانيَ قليلة ليحدد موقع الطائر الجريح. هناك. جوار السياج. راقدا على جانبه، ينتفض بعنفٍ. ركض سايمون نحو المدخل ذي البلاط الحجريّ، وقرفص جواره.
هتفت ماري من باب الكوخ، حبكت قميص نومها ليقيها هواء الليل. وكان شعرها معقوصًا لأعلى.
- " ما هذا ؟ " سألت.
احتوى الطائر بيديه ثم انتصب واقفًا. كان الطائر يرتعد ولم يكن فيما يبدو واعيًا.
- " هذه بومة،" قال. " أعتقد أنها بومة من نوعٍ ما."
أحد الجناحين كان متدليا على نحو رهيب، العظام تطقطق بوضوح، والرأس لم يكن في موضعه.
- " ماذا بوسعنا أن نفعل؟ " قالت ماري فيما تلحق به عند السياج.
هزَّ سايمون رأسه. " لا أعتقد أن بوسعنا فعل أي شيء، أظن أنها ماتت بالفعل."
- " لكنها تتحرك. انظر إليها. ياللكائن المسكين !! فقط انظر إليه."
اهتزت البومة بين يديْ سايمون. فتحت منقارها في ارتجافة أخيرة، ثم توقفت الرعشة. اختبر سايمون النبض بجسدها، لم يكن واثقا أين يضع إصبعه. لكن شيئًا لم يكن هناك على الإطلاق.
- " ماتت." قال
نظر إلى ماري فرأى الدموع بعينيها.
- " لا أظن أنها تألمت طويلا،" قال. " إنها صفعت النافذة وحسب، أظنها طارت مباشرة صوب تلك النافذة اللعينة. أعتقد أنها خبطتها فماتت من فورها."
مدّت ماري يدها ومسدّت ريش البومة. لا دم هناك. لا قطرة واحدة. نفس الشيء كان مع " كيت". نفس الشيء تماما.
- كانت جميلة جدا،" قالت ماري. " هل تعتقد أنها هي ما سمعناها تنادي؟ أظنها هي. يا إلهي، ياللحسرة !"
ثمة شيء في نبرة صوتها أثقل صدره للغاية. كان عليه أن يزدرد لعابه قبل أن يمكنه الكلام.
- " سوف نقوم بدفنها في الصباح،" قال." سنأخذها إلى الغابة في الأسفل هناك، ونبحث عن بقعة جميلة وندفنها سويًّا."
نظرت إليه ماري وقالت:
- " نعم، يبدو هذا مناسبًا. فلنفعل."
ألقت لمحةً سريعة إلى الكوخ ثانيةً ثم همست: " وربما أتى أحدهم ليصلح النافذة. إذا قامت عاصفة سوف تطيح بنا."
أومأ سايمون. كانت على حق، لكن شيئًا داخله لم يرد للنافذة أن تُصلح. فقد نال الكثير من مراقبة العالم عبر الزجاج.
- " لا أظن أن عاصفةً ستهب." قال.
وقفا للحظة جوار السياج، ينظران خلال ضوء القمر إلى جسد الطائر بين كفيْ سايمون. تأرجحت ماري قليلا من جانب إلى آخر، كعادتها حين تقدّر الأشياء، ثم لمست ذراعه بأطراف أناملها، انحنت إلى الأمام، ثم طبعت قبلة على خده.
- " سوف أضمُّ السريريْن إلى بعضهما البعض،" قالت، "أنا مجهدة يا حبيبي. هل تأتي؟"
أزاح خصلة من شعرها فوق خدها. " سآتي خلال دقيقة." قال.
- " لا تتأخر."

شاهدها تعود إلى الكوخ، رفع يده إلى البقعة التي قبلّته فيها. ثم أخذ البومة إلى السيارة وأرقدها بعناية على المقعد الخلفي.

- " شكرًا لكِ، " قال. طوى جناحها المكسور برقّة، وأراح ريشها الطويل الغزير قائلا. " شكرًا لكِ."

أخرج كتابه المفضل من تابلوه السيارة. مجموعة من القصص القصيرة لـ هـ. إي. بيتس. وضعه في جيب بيجامة النوم وأغلق السيارة.

عند مدخل الكوخ وقف في الهواء البارد لدقيقة أو اثنتين، ينظر صوب القمر. ثمة بومة تطير عبر المشهد، تنادي نداء حزينا وخافتا.

استدار. دخل إلى الكوخ. ثم أغلق الباب.

***

وجبة إفطارٌ مع «آندي»

- « افتحي فمَكِ يا لوسي»، هكذا قال أخي الأكبر «آندي»، لكنني لن أفعل. أنا خائفة، لكنني لن أفتحَ فمي مهما قال، ومهما غدا عصبيًّا.

فقد أعصابه صباح أمس. واليوم، برغم عنادي، لم يكن عصبيًّا جدا. ليس بعد، على كلِّ حال. ظلَّ لبرهةٍ يؤرجح ملعقته تحت أنفي كما اعتاد أبي أن يفعل حين كنت طفلة صغيرة. لكنه حين وجدني مازلت أرفض، لم يثُر عليّ ولم يضربني. بل توقف عن أرجحة ملعقته. بعد ذلك هزَّ كتفيه استنكارًا ثم بدا حزينًا، كأنني خيّبت أمله. هزَّ رأسه وسحب الملعقة بعيدًا عن وجهي. « سوف تنصاعين لقولي يا «لوسي لوكيت»، سوف تنصاعين.»

لكنه مخطئٌ. لن أفعل.

يواصل «آندي» إفطارَه.ولا أريد أن أراه. أنظر إلى الأشياء الأخرى بدلا من ذلك. أرقب البقع على الطاولة، موقد الطعام، الثلاجة، خزائن الأكواب بأقفالها الجديدة الضخمة. «آندي» حوّل مطبخنا إلى فوضى ولخبطة عظيمة. وفعل الشيء ذاته في كافة أرجاء المنزل، ملابسه وكتبه وأوراقه في كل مكان. الوحل على الأرضية من حذائه الطويل، صحون الأمس يُلقي بها في الحوض كما تلقى النفايات، وفي الركن جوار الباب الخلفي يمكنني رؤية جواربه المتسخة.

أكره حال الفوضى تلك. حين كان أبي هنا، كنا دائما نحافظ على البيت نظيفا منظّمًا، وشديد الأناقة. أحبه هكذا. لو تركني «آندي»، سوف أقوم بتنظيف كلِّ شيء فورًا، في هذه اللحظة تحديدًا، لكنني أعلم أنه لن يسمح لي. وإذا فعلت ذلك بغير أن يقول هو، سأقع في متاعب ضخمة.

الساعة تمضي ببطءٍ شديد. أحدّق فيها وأحاول أن أجعل العقارب تمشي أسرع. أريدها أن تأتي على الوقت الذي يخرج فيه «آندي» إلى العمل. الوقت الذي أصبح فيه نفسي. حين أصبح نفسي سوف أكتب في دفتر مذكراتي من جديد.

أجعل عينيّ تخرجان من البؤرة وأحاول التفكير في لا شيء، لكنني لا أستطيع. أفكر في الوقت، في ساعات الحائط وساعات اليد وساعات الزمن، أفكر في كيف يمكن أن نشاهد الساعة. أبدأ في التفكير في الطعام، ثم بعد ذلك لا أستطيع التوّقف.

- « اللعنة!!» يقول «آندي» ذلك فيجعلني أقفز. أنظر إليه فأرى بعض الطعام ملتصقا بذقنه مع اللعاب. وبقعة مبتلّة فوق قميصه، لا أريد أن أرى أيًّا من ذلك، فأنظر بعيدًا.

أتمنى لو لم أكن جائعةً إلى ذلك الحد. أنا جائعةٌ كما لم أكن في حياتي كلها.

رفعتُ كأسي وأخذت رشفةً فأصدرت معدتي جلبةً أثناء نزول الماء إلى الأسفل. يسمع «آندي»، ورغم أني لا أنظر إليه، لكن بوسعي أن أشعر بابتسامته العريضة. هو يحسب أن صريرَ معدتي يعني أنني سأفعل ما يريد. يظن أنني سرعان ما سأشاركه إفطاره – لكنني لن أفعل. رغم أني لم آكل أيَّ شيء منذ مدة طويلة، أيام وأيام، ورغم أنني أصبحت أبدو مثل هؤلاء الأطفال الأفارقة الذين نراهم في التليفزيون يتضورون جوعا، لكنني لن أشارك «آندي» إفطاره. إلى الأبد. أنا مثل ذلك الرجل البدين فوق الدراجة البخارية، الرجل الذي اعتاد أن يغني تلك الأغنية التي أحبها أبي :» بوسعي أن أفعل أيَّ شيء من أجل الحبِّ، لكنني لن أفعل ذلك.»

أتمنى أن يأتي وقت ذهاب «آندي» إلى العمل. أتمنى ذلك جدا جدا.

***

الثلاثاء.

مفكرتي الحبيبة. لم يضربني هذا الصباح، لكنه يكلم نفسه كثيرا. ليست كلمات مفهومة، لكنها الكلمات المصطنعة تلك التي يستعملها أحيانا. يفعل ذلك طوال الوقت منذ أن مات أبي، وهذا مخيف. وهو كذلك يصيح ويتوعد ويسبُّ كثيرا.

يعيد التأكيد على أقفال الخزانات قبل أن يخرج للعمل.واشترى قفلا جديدًا، قفلا أكبر للثلاجة. وبينما كان يركبّه أخبرني أنني أصبحتُ جلدًا على عظم، وأنه يشعر تجاهي بقلق شديد. ثم الآن، بعد أن حبسني في غرفتي، قال الشيء الذي أرعبني جدا. وقف في الخارج وقاله بصوت عالٍ، من خلال الباب.

- « تعرفين ماذا يجب عليك فعله يا «لوسي»، لن تبرحي الغرفة الآن، لن تبرحيها حتى وقت متأخر جدا» هكذا قال.

كان يصفّر وهو يغادر المنزل. سمعت الشاحنة تدور ورأيته يقودها إلى أسفل الطريق. والآن، أنا وحدي. تماما.

لا يزعجني أن أكون وحيدة، لكنني أكره أن أُحبس هكذا. حين أُسجن على هذا النحو أشعر أنني على وشك الجنون، حين أفكر أنني لن أعيش طويلا. عيد ميلادي الشهر القادم، لكن إذا لم أخرج من هذه الغرفة بشكل أو بآخر، وإذا لم أجد شيئا آكله، أعتقد أنني لن أصل السادسة عشر. السادسة عشر.

- « ترقّبي يا «لوسي لوكيت» ، هكذا يقول «آندي» أحيانا. «السادسة عشر على الأبواب.»

سوف يلمسني حين يقول ذلك، كم أكره أن يمسَّني.

- « سن الرشد، قريبا جدا،» يقول هذا ثم يضحك ضحكته الكريهة.

أعتقد أنني ربما لا أودُّ أن أصل السادسة عشر. أظنني لا أريد أن أصل السن القانونية.

الأربعاء.

يومياتي الحبيبة. أمس كان يوما جميلا. يوما مهمًّا. وجدتها ! وجدت طريقة الخروج من غرفتي.

ما فعلته هو التالي:

انتظرتُ حتى خرج «آندي»، تسلقتُ خارج النافذة، وضعت أصابعي في الفجوات بين قوالب الطوب. تحركت بمحاذاة الحافة حتى الماسورة الضخمة في زاوية البيت. كان شيئا خطرا لأن غرفتي مرتفعة جدا، تألمت أصابعي جدا، وكدت أسقط مرتين، لكن كان لابد أن أفعل ذلك.

بمجرد وصولي إلى الماسورة كان من السهل أن أهبط للأسفل. ذهبت مباشرةً إلى شجرة التفاح الكبيرة وأكلت ثلاث تفاحات. كنت أرغب في المزيد لكنني أرغمت نفسي على التوقف بعد الثالثة مخافة أن أُصاب بالإعياء. بعدها ذهبت للنظر داخل السقيفة. الأغراض التي أردت كانت ما تزال هناك. الحبلُ كان مخبأً وراء بعض الصناديق، لذلك لن يلحظ «آندي» غيابه إلا إذا احتاجه، وهذا احتمالٌ ضعيف.

لم آخذ كل صندوق السم قاتل الأعشاب الضارة. لكنني أفرغت بعضا من محتوياته في منديلي وحسب، ثم ربطته في حزامي. كنت مرتعبة من فكرة أن يعود «آندي» مبكرا ويمسك بي، لذلك خبأت تفاحتين أخريين في جيبي، ربطت الحبل في كاحلي، وتسلقت عائدةً إلى غرفتي. كدت أسقط مرةً أخرى، لكنني لم أسقط، والآن والحبلُ لديّ، بوسعي الخروج والدخول وقتما أشاء.

خبأتُ الحبل والسمَّ تحت إحدى بلاطات الأرضية المفكوكة. لو اكتشف الذي أفعله سيقتلني.

***

الخميس.

يومياتي العزيزة. اليوم على الإفطار كنت خائفة حقًّا أن يلحظ «آندي» الاختلاف. فكرت أنه ربما يوجد مذاقٌ لاذعُ أو شيء من هذا القبيل. راقبته جيدًا – كان مسرورا لأنني أراقبه – لكن يبدو أنه لم يلاحظ شيئًا. أظن أن خُطّتي تنجح.

وأنا أشاهد «آندي» يأكل هذا اليوم، تذكرت الصباح الأول الذي رأيته فيه يأكل ملعقته الأولى من جسد والدِنا. بدا ذلك منذ أمد بعيد. كأنه شهر أو يزيد – يجب أن أبدأ في إبقائك على مقربة مني يا مذكراتي.

كان ذاك اليوم مشمسًا، ليس مطيرًا مثل الآن، أتذكّر حين نزلت من أجل الإفطار، بينما «آندي» جالسٌ بالفعل على السفرة. بدا وكأنه ينتظرني. وكان متوترًا.

- «اليوم، هذا هو اليوم يا لوسي الصغيرة،» قال هذا وأجلسني بجانبه. ثم جعلني أشاهده وقد شرع في أكل أبي.

كان يتحدث عن اشتغاله على الأمر لأسابيع، منذ ذلك اليوم الذي أحضرنا فيه جرّة رماد الوالد من محرقة الجثث. أمطرت في ذلك اليوم أيضًا، وصرختُ طويلا. وضعنا الجرّة على رفٍّ عالٍ في المطبخ، وبعدها أقام «آندي» احتفالا صغيرا بالشموع وغيرها. كان يتظاهر بأنه يقرأ مادةً في كتاب، مادةً بلغة مضحكة، غير إني أعتقد أنه اختلق اللغة.

مراسم الحفل كلها كانت فكرته هو. بدأتْ على ما يرام لكن سرعان ما غدت بشعة. لم أرد أن أشارك، لكنه أرغمني، وبعد ذلك كان عليّ الذهاب إلى التواليت للتقيؤ. وحين دخلت فراشي في الليل، أتى إليّ وأخبرني ماذا ينوي أن يفعل. ماذا سيفعل بأبي. أخبرني بالخُطَّة.

- « إنها مادةٌ مهمة يا لوسي،» قال. «إنه الشيء الذي فعله الناس في العصور القديمة، قبل المسيح وقبل كلِّ شيء. حين كانوا يعيشون في الكهوف ويصطادون الحيوانات المتوحشة بالرماح. إن ذلك يعطيك القوة. يحولّك إلى كائنٍ خاص متميز.»

بعد ذلك وبعد أن أنهى عبثه معي، قال:» أريدكِ أن تكوني شخصًا مميزا أيضًا يا لوسي.»

في البدء، كنت أظن الأمر كلّه مجرد كلام. أنتِ تعرفين يا مذكراتي. فأنا غبيّة. أسيء فهم الأمور أحيانا. لكنك تعرفين «آندي» أيضًا، تعرفين كيف يكون. يمكنك أن تدركي كيف وقعتُ في غلطة كتلك. «آندي» يتكلم كثيرا. وُلدَ تحت فألٍ سيء، أبي اعتاد أن يقول إنه ملعونٌ بلسان أنشط مما ينبغي. يقرأ تلك الكتب، يكوّن تلك الأفكار، ثم يتكلم ويتكلم ويتكلم حتى تضطر إلى الخروج من البيت لتأخذ نزهتك المفضلة على النهر وتطعم البطَّ وما شابه. لأنك لو لم تفعل، فمن المحتمل جدا أن ترتكبَ شيئًا شريرا. ربما تأخذ سكين التقطيع الحادّة من دُرْج المطبخ وتطعنه في قلبه، ربما تقتله.

أعرف أنني يجب ألا أفكر بهذه الطريقة، أعلم أن ذلك خطأ، لكنه اعتاد أن يثير أعصابي حدَّ الجنون. الجنون بالفعل. والآن الأمر أسوأ، أسوأ بكثير لأن أبي رحل ولم يعد لديّ أي شخص أكلمه، حين تهاجمني المشاعر الشريرة، سواكِ.

كنا نتكلم، أبي وأنا. كان يأخذني لإطعام البطِّ أحيانا، وكان يحكي لي قصصا عن أمي، ويخبرني ألا أدعَ «آندي» يدخل تحت جلدي. كان يمسك يدي بلطفٍ، ليس مثل «آندي»، ينظر في عينيّ ويبتسم. كان الحال أفضل كثيرا حين كان أبي حولنا. لأنه يعرف كيف يُعمِل الكوابح وكيف يجعل الأمور أكثر بطأً. الأفكار والأحاديث كانت متباينة بشدة عن خطط «آندي» حين كان أبي هنا.

لكنه رحل الآن، ولم يعد هناك من يضع الكوابح في وجه «آندي». فقط أنا.

***

الجمعة.

مذكراتي الحبيبة. «آندي» في التواليت. وأنا محبوسة في غرفتي، لكن بوسعي سماع لغطه. آمل أن يخرج اليوم للعمل.

حلمتُ حلمًا سيئًا عن أبي الليلة الماضية. حلمتُ أنني عدت إلى البيت من المدرسة ووجدته ميتًّا عند قاع السُّلَّم، عنقه مثنيٌّ ورأسه ملتوٍ تماما. «آندي» كان يجلس على الدرّج ينظر بفزع، وبعدها صحوت وتذكّرت أنه لم يكن حُلمًا. هذا حدث.

صرختُ طويلا. بكيت نهرًا كاملا. أتذكّرُ كيف جعلني «آندي» أجلس معه على الدرج وأنظر إلى الأسفل حيث أبي، وكيف كان يفتعّلُ ضجيجا مضحكًا، وكيف أنه لم يبكِ. ربما لم يبك لأن أبي كان يضربه أحيانا. ربما كان ذلك هو السبب. لا أدري.

بعد برهة راح إلى الهاتف وكلّم بعض الناس.

أتذكّر كيف جاءت سيارة الإسعاف وأخذت أبي. « وضع «آندي» ذراعيه حولي وأمسكني لمدة طويلة. ربما ساعة. «لوسي، لم يعد هناك غيرك وغيري الآن.» قال ذلك.

وكان على حق، لأن أحدًا لم يأت لزيارتنا بعد ذلك. كنت أحب أن أسكن على بعد أميال من أي مكان قبل أن يموت أبي، قبل أن ينزع «آندي» الهاتف. أكره ذلك الآن. الأشياء أصبحت عبثية منذ ذلك الحين. ليست عبثية بمعنى ها-ها، بل شاذة العبث.

لا أظن أن «آندي» افتقد أبي، ولو قليلا، لكنني أفتقده. أفتقده بشدة. أبي الآن مجرد حفنة رماد في جرّة، وإذا أخفقتْ خُطّتي سيستمر «آندي» في التهامه كل يوم، ملء ملعقة كل صباح. ويومًا ما سيفنى أبي تماما. سوف يغدو مجرد جرّة فارغة فوق رفِّ المطبخ.

ذهب آندي إلى العمل. شاهدته يمشي صوب الشاحنة. لم يكن على ما يرام.

***

السبت.

يومياتي الحبيبة. هذا الصباح نزلت للإفطار وكان «آندي» جالسًا هناك على طاولة المطبخ. بدا مريضًا جدًّا ومعتوهًا جدًّا. أشفقتُ عليه تقريبا.

- « لوسي الصغيرة.» همسَ. «لوسي لوكيت الصغيرة.»

كنت أحب أن يناديني هكذا. جلست على الطاولة.

كان انتهى من إعداد مكونات صحنه الخاص من «الكورن فليكس» ، السكر، زجاجة الحليب – لكنه لم يملك القوة لفتح غطاء جرّة أبي. ساعدته بأن فتحتها من أجله. نظر إليّ وتدلّى فكّه مفتوحًا.

- « هل تشاركينني ؟» سأل.

- « لا،» أجبته. « لكنني لا أمانع أن أساعدك.»

بدا سعيدا إلى حدٍّ ما. وكان لابد أن أوقف نفسي من الشعور بالتعاطف معه.

أغمد «آندي» ملعقته في جرّة أبي، وقتها بدأت كل ذرّة من طاقته تتلاشى، لدرجة أنه لم يستطع إخراج الملعقة ثانيةً. راح يبكي.

- « أنا آسف أني حبستك في غرفتك،» قال. «أنا آسف على الكثير من الأشياء يا لوسي. ساعديني أكثر من فضلك.»

مددت يدي، جذبت الملعقة ورششت خليطَ رماد أبي وسمّ الأعشاب فوق صحن «الكورن فليكس». ثم أضفت السكر واللبن. ابتسم لي «آندي» بامتنان.

بعد برهةٍ، بدأت أطعمه بنفسي.

***

داخل رَحِمٍ مُنتظِر[9]*

قالتها شقيقتي ثانيةً.

- « الماما المُنتفِخة[10] لن ترغبَ فيكَ.»

أخبرتُها من قبل أن قولتَها تلك تصيبيني بالغثيان، لكنها لا تكترث. هي لا تكترث مطلقًا. لذلك فكرتُ للمرة الأولى ألا أضيّع وقتي في التفكير فيما تقول. بدلا من ذلك انتظرتُ حتى نامت، ثم مددتُ كلتا يديّ – هذان الذراعان الغبيّان مازالا نحيفيْن جدًّا، قصيرين جدًّا، الكفان والأصابع لم تكبر بما يكفي – ثم أمسكتُ بحبلِها السُّريّ. قبضتُ عليه بيمناي، على بعد شبرٍ من النقطة التي فيها يختفي داخل البطنِ المُنتفِخة، لويتُه بيدي اليسرى. قُطْرُ حبلِها السريُّ أعرضُ من حَبلي بمقدار الضِّعف، من أجل هذا كانت شقيقتي كبيرة وكنت صغيرًا.

ليس بوسعي فعلُ شيءٍ حيال هذا الأمر. «طفل، طفلٌ، الحياة غيرُ عادلة»، هكذا تغني ماما المُنتفِخة حين تكون عكرة المزاج، وكانت على حق. تعلّمتُ ذلك مبكرًا حالما أدركتُ أن شقيقتي الشرهة تلتهم الغذاء، ليس فقط نصيبها مما تمنحنا الأم من غذاء وفير، بل نصف نصيبي أيضًا على الأقل.

توقفتُ برهةً ثم نظرتُ إليها، سدّدتُ إليها نظرةً ليليةً واسعة، كانت تطفو إلى جواري. مقلوبة، أو ربما أنا المقلوب. الأمرُ نسبيٌّ كلُّه. هززتُ رأسي وقلتُ في نفسي أنني على وشك ارتكاب خطأ غير محسوب، فشقيقتي الخنزيرة – رغم نومها - هي الأكبر حجمًا، الأكثر قبحًا وبشاعة، وتمثّل أكثر الأشياء تهديدًا لي في فضائي الراهن، وأعرف أنها تكره معدتي التي تكوّنت حديثًا. حين تفكرون في ذلك الأمر ستجدون كم هو مدهشٌ أنني مازلت أحيا إلى الآن.

كلا، يجب ألا أفعل ذلك، أعلم أني يجب ألا أفعل. لكنني الآن غاضبٌ. الآن نالني ما يكفيني من عبارتها المقززة «ماما المُنتفِخة لن ترغب فيكَ»، أريد قليلا من الترضية، قليلا من الثأر. لذلك سأمضي في طريقي. أحكمتُ قبضتي على الحبل السريّ لشقيقتي الفظّة، ضغطتُ بأكثر ما يمكنني، ثم شددته بعنف.

استيقظتْ وعوى صوتُ عويلها في رأسي. « واء، أنتَ يا حقيبة الحثالة! ماذا بحق الجحيم ...»

أطاحتْ بيديّ بعنف بعيدًا عن حبلها، وركلَ كعبُ قدمها اليمنى جانب رأسي، لكن قدمَها السمينة المبطّنة بكثيرٍ من الشحم لا تؤلم كثيرًا على كل حال.

صرختُ فيها، « أخبرتُكِ من قبل، ليس لديك الحق في قول ما تقولين. أنتِ لا تعرفين، لا تعرفين المشاعر التي تحملُها ماما نحوي!»

فَرَدَتْ شقيقتي الفظَّة جسمها، واحتوت فراغي الخاص. كان بوسعها تصفيتي في لحظات، كلانا يعرف ذلك.

«اسمع أيها التحفة الصغيرة،» قالت. « إذا كنتَ لم تلحظ، فأنا أكبر من ضعفيْ حجمك الآن، ويزداد حجمي طيلة الوقت. والسبب الوحيد في أنكَ مازلتَ تحيا حتى الآن هو أنني لا أريد أن يطفو جثمانك حولي هنا ويلوث سوائلي وغذائي. هل استوعبت الأمر؟»

أفهم ما تمتاز به عني، غير أني قررتُ المقاومة. ما الذي يمكن أن يحدث؟! أبديتُ ما يمكن أن يبدو عِصيانًا، غير أني أومأتُ برأسي.

« هذا جيد، والآن دعني أخبرك بشيء آخر. أشكُّ في أنك ستنجو في عملية الولادة – أتمنى بإخلاصٍ ألا يحدث هذا – لكن إذا لمستَ حبلي مجددًا، إذا فقط وضعتَ عليه خِنصرَك الضئيل القذر، أضمن لك أنك لن تعرف طريقك أبدًا، أرجو ألا يصل الأمر إلى ذلك.»

ركلتني ركلةً ممتازة. في ذات الموضع. لكن على نحوٍ أعنف هذه المرة.

- «اتفقنا أيها الدمية العتيقة ؟»
- « على أي شيء؟»
- « هل كلامي واضح؟»

لم أجب بالسرعة المناسبة، لذا ركلتني ثانيةً. سمينةً كانت أو غير سمينة، فإن قدمها آلمتني هذه المرة. رأيتها تسحب ساقها بعد الركل للمرة الرابعة.

- « حسنًا، نعم كلامك واضح. الآن دعيني وشأني.»

ابتسمتْ وأظهرتْ ببطء لثتَها القذرة. لو كنت أفتقر إلى المعرفة لأقسمتُ أنها تمتلك مجموعةً كاملة من الأسنان.

- " شيءٌ آخر ..."
- " ماذا؟"
- " إذا أردت لعضوَك المسكين هذا ألا يُمضَغ، فالأفضلُ لكَ أن تُبعدَ هذا الشيء المقرف عن وجهي!"

حركتُ يديّ وغطيّت نفسي. لا أعتقد أن الأمر سيصل بها إلى هذا الحد – لكنني تعلّمت من خبرتي السابقة أن من الأفضل أن تكون آمنا بدلا من الندم. حاولت أن ألتفَّ بحيث أعطيها ظهري، لكن الأمر لم يكن سهلا. كنا في بداية شهرنا الثامن ولم يعد هناك مكانٌ للمناورة مثل ذي قبل.

وبالتدريج عدنا إلى حال تجاهل أحدنا الآخر كالعادة.

تكوّرتُ وأنصتُ للضجيج بالخارج. الماما المُنتفِخة لديها مجموعة أصدقاء مدعوين على القهوة، يأتيني صوتها المكتوم عبر الجدران. أحبُّ صوتَها. حين أولّد أتمنى أن تحبَّ صوتي. أتمنى أن تحبَّني. أتمنى أن تحبَّني أكثر من شقيقتي الخنزيرة.

ماما المُنتفِخة تضحك لأن جنينيْها يخبطانها من الداخل. رَحِمُنا يترجرج، وثمة شخصٌ آخر يضحك، وآيادٍ تضغط على بطنها فتؤلم جانب جبهتي حيث ركلتني شقيقتي البشعة. قاومتُ نفسي كيلا أحكَّ موضع الألم. هي تراقبُني، أعلم أنها تراقبُني، ولن أمنحها الشعور بالرضا.

أغمضتُ عينيّ وحاولت أن أستريح، لكن رأسي كاد ينفجر من فكرة أن أمي لو أكملتْ شهور الحمل، سيكون أمامي شهر آخر في هذه الحال، وللحق، أنا لستُ واثقًا أن بوسعي تحمّل ذلك. شيءٌ قاتل أن تُسجن في فراغٍ محدود مع عدوّك اللدود. في المرات شديدة السوء فكرّت أن أعضَّ حبلي الخاص وأنهي الأمر كلّه قبل أن يبدأ.

وقتها أفكر في "البنت". البنت التي تعدُّ نفسها "لتولد شرسةً". تلك البنتُ هي سري الخاص، منبع قوتي الداخلية. إنها السبب الذي من أجله سأتجاوز كل تلك الأوقات المظلمة.

حين أتذكرُها أعدل عن فكرتي.

تعلمون ؟ الأمور لم تكن دائما هكذا. أتذكر الأسابيع الأولى من الحمل، لا تبدو الآن شديدة السوء - كانت أفضل من الآن على كل حال. صحيح أن الطفوَ داخل كائنٍ بشريّ آخرَ لم يكن قط فكرتي عن البهجة – لكن على الأقل في تلك الأيام المبكّرة كان هناك متسّع لتتحرك، لتتمدد،

لتضرب بأطرافك هنا وهناك. لم أكن أعرف أن الأمر وقتها أفضل، لكنه كان أفضل. فأنت تتعلم كلما عشت أكثر. ولكن للأسف فبينما تعيش وتتعلم فإن حجمك يكبر أيضا.

هناك أغنية أخرى تلخّص ذلك الحال بالنسبة لي، أغنية تغنيها الماما المُنتفِخة، هي تحبُّ موسيقاها وتغنيها أثناء تنظيف البيت. تلك الأغنية القديمة عن التاكسي الأصفر الكبير. تؤديها على نحو لا بأس به – ليس تام الإتقان – لكن بما يكفي لوضوح القصيدة والنغمة. " ألا يبدو مسرعا على الدوام، حتى أنك لا تستوعب قيمة ما امتلكت إلا بعد أن يذهب؟"

كاتبُ تلك الأغنية يعرف كثيرًا. صدقوني، فبمجرد أن تضرب ذلك الشيء ذي السبعة أشهر، فإن الكلوستروفوبيا[11] تحتلُّ قلبَك فورًا. خاصةً إذا كنتَ مُجبرًا على مشاركته الحيّز نفسه.

تلك هي المشكلة الكبرى للشقيقة البشعة حسب ظني. فهي لا تجيد فنَّ المشاركة.

تعرفون؟ حين أولد سأتعقّبُ ذلك الرجل (أراهن بعُمري أنه ليس امرأة) الذي صمّمَ الرَّحِم، وسوف أضعه أمام بعض الحقائق الأساسية. لأنه ارتكب عدّة أخطاءٍ برأيي المتواضع. لا أعني ضيق الحيّز وحسب. بل أيضًا نُدرة وسائل التسلية (كتلك التي تقدّمها شركات الطيران على طائراتها مثلا) مما يُعدُّ جريمة في تلك المرحلة. يا يسوع، أليس عجيبًا أن كلَّ جنين قابلته كان مختلاً نفسيًّا؟ ماذا تتوقع حين لا يكون هناك ما تفعله في تلك الأرحام سوى التصنّت على الأصوات المكتومة لخفقان قلوب الأمهات المنتفخات، أو ربما عد قرقرات المعدة؟ وطبعا يمكنك قياس كم كَبُرَ ذراعك وساقك، أو يمكنك أن تمرَّ بإصبعك على فتحة اليافوخ لتستحثَّ مخّك وتوقظه، لكن تلك الأفعال سرعان ما تمر. حتى نشوة امتصاص إبهامك التي تحصلّها أخيرًا(بعد أن ينمو لك فمٌ ليَمتصَّ، وإبهامٌ ليُمتَص) لا تستمر طويلا.

المرة الوحيدة التي خفَّ فيها حال الضَّجر حين كنا جنينيْن في شهرنا الخامس ولم تكن شقيقتي قد تحولّت بعد إلى ذلك الوحش. الماما المُنتفِخة أخذت ثلاثتنا إلى عيادة الطبيب وظللتُ طوال مدتنا هناك أتسمع إلى الأصوات. يروحون ويجيئون. الخنزيرة لم يبد عليها أنها لاحظت، لم يدهشني ذلك. فهي ليست ممن يمكن أن تعتبرهم مرهفي الحس.

كنت هناك، أطفو هنا وهناك منشغلا بأموري الخاصة حتى سمعت فجأةً :» هذه المرأة بلهاء، بلهاء تماما. هذا قدري...»

لم يكن صوت الخنزيرة. النبرة مختلفة، الصوت مختلف. ثم سمعت واحدًا آخر. « إنه مظلم، مظلم جدًّا. ربما أمكنني أن أحفرَ نفقًا...»

استغرقتُ برهةً لأستوعبَ ما يحدث، لكنني فهمت في النهاية. المكان لابد مكتظٌ بالأمهات المنتفخات، العشرات منهن، وكلما مرّت واحدة منهن متباطئةً على مقربة منا أسمع قرقرة جنينها عن طريق موجات الفكر. تعوّدتُ على الكلام القذر الذي تطلقه شقيقتي– كان عادةً عن الطعام أو عن عروسة «باربي» التي سمعتْ عنها في تليفزيون الماما، أو عن مدى كراهيتها لي – لكنني لم أتخيل، حتى ذلك الوقت، أن بوسعي التقاط موجات أخرى لأجنّة في الخارج كما حدث. كان محفّزًا طيّبًا لكنه في ذات الوقت مخيفٌ جدًّا. صدقوني ثَمَّ الكثير من اللغط الجنينيّ هناك.

كان هناك جنينٌ ظلَّ يكرر نفس القولة مراتٍ عديدة، نفس الصرخة العجيبة ذات النبرة العالية التي تأتيني عبر الذهن . « أيها المسيح في عليائِه .... ليس من مكان يكفي ثلاثة! يا يسوع، المكان لا يتسع لثلاثة!!!» ظل يكررها مراتٍ ومرات، وكأنه يستنجد. أذكر أنني فكرت وقتئذ أن وضعي،

رغم كل شيء، لم يكن بهذا السوء. شيء واحد مؤكد، أن أمَّه كانت في لحظة بهجة حين انبثق هو وإخوته.

عندئذ سمعتُها. البنت. سري الحميم جدًّا، البنت التي سأعثر عليها يومًا. أحببتُ صوتَها فورًا لأنها كانت تغني الأغنية التي كانت ماما تغنيها أحيانا – «ولدنا كي نكونَ شرسين» – يأتي صوتها ليغطي على صوت الضربات العالية والخافتة لأضلع أمها.

« خُذْ دراجتك البخارية واركض
اتجه صوب الطريق العام
فتِّشْ عن مغامرة
ومهما يحدث في طريقنا
اجعله يحدث يا عزيزي
عانق العالم بحبٍّ
أطلقْ كلَّ رصاصتك مرة واحدة
وفجرّها في الفضاء
مثل طفلِ الطبيعة الحقيقيّ
نحن وُلدنا،
وُلدنا كي نكون شرسين.
بوسعنا أن نتسلّق عاليًّا
لا أريد أن أموت أبدًا».

كنت منوَّمًا مغناطيسيًّا. كنت أتخيلّها ترقص في الرحم، وكنت أتوق بكل قوة أن أجاور البنت تلك، طفلة الطبيعة الحقيقية، بدلا من أن أُسجَن مع هذه الخنزيرة. هي وأنا، بوسعنا أن نحصل على الكثير من البهجة سويًّا.

تعرفون؟ حين أجدُ طريقي، يوما ما، سنحصل على بعض البهجة سويًّا. مهما قالت شقيقتي الخنزيرة، سوف أُولَد، سأحيا وسوف تحبني الماما، وسوف أحبها بالمقابل. يوما ما حين أغدو قويًّا وصحيحًا – حين أغدو كبيرًا!!!!! – سوف أتعقّب تلك الفتاة وأريها أن كلينا خُلق من أجل الآخر. نعم. سوف يجد كلٌّ منا الآخر، وسوف نقود دراجتينا البخاريتيْن صوب الطريق العام ونفعل كلَّ شيء جنونيّ من أجل أن نجعل تلك الأغنية حقيقةً.

هذا حلمي، وذلك ما سوف يكون.

صدقوني.

***

9 * - فازت القصة في مسابقة «بينيزورال» **Peninsular**
10 تعبير يعني أم في حالة حمل.(ت)
11 - الخوف من الأماكن الضيقة. (ت)

عن المترجمة

فاطمة ناعوت: شاعرة ومترجمة مصرية. تخرجت في كلية الهندسة جامعة عين شمس، قسم العمارة.

لها ثلاثة دواوين شعرية :

- «نقرة إصبع» –الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة كتابات جديدة .
- "على بُعْد سنتيمتر واحد من الأرض" – في طبعتين عن دار "ميريت" ودار "كاف نون".
- "قطاعٌ طوليّ في الذاكرة" – الهيئة المصرية العامة للكتاب 2003.
- أنطولوجي عربي "أحزان حمورابي"(مشترك) - مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان 2003.

في مجال الترجمة لها :

- أنطولوجي مُترجَم عن الإنجليزية "مشجوجٌ بفأس" - بتقدمة للشاعر حلمي سالم – سلسلة آفاق عالمية، الهيئة العامة لقصور الثقافة 2004.
- " فرجينيا وولف: جيوبٌ مُثقلةٌ بالحجارة" مراجعة وتصدير د. ماهر شفيق فريد، المشروع القومي للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، مصر.

ولها تحت الطبع ديوانا :" نصف نوتة"، و "فوق كفِّ امرأة"، وديوان شعر بالإنجليزية بعنوان "Before the School Shoe Got Tight".

ولها قيد الإعداد كتابٌ نقدي بعنوان "دائرة الطباشير".

الموقع على الإنترنت

www.geocities.com/fatima_naoot